عَلَّمَ الْقُرآن

الطبعة الثانية

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

الحمد للَّه رب العالمين وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

أما بعد..

فإن التعليم إذا كان على منهاج النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فإنه يخرج جيلاً رباه وصنع شخصيته القرآن، وليس المناهج البشرية الناقصة، جيل يحمل هم هذا الدين ويقاتل من أجله، جيل يغيّر تاريخ البشرية كما غيّره جيل الصحابة الفذ الفريد.

وذلك **لأن القرآن إذا تم تعليمه كما كان يعلمه صلى اللَّه عليه وسلم فإنه يبني شخصية المسلم ويغير صفاتها فيجعله مطمئن القلب منشرح الصدر قوي الإرادة والعزيمة عالي الهمة ، شجاعاً، كريماً، صبوراً، مخلصاً، صادقاً، مراقباً للَّه، يحترق حرصاً من أجل خدمة هذا الدين، عندها يصبح هذا الشخص كنزاً للأمة أينما تضعه ينفع ويبدع بإذن اللَّه، فيتعلم في أيام ما يتعلمه غيره في سنين، وينجز في أيام ما ينجزه غيره في سنين**، وذلك لأن معاني القرآن إذا وصلت إلى القلب فإن القلب يمتلئ بمحبة اللَّه وخشيته، و هذه المحبة والخشية تدفع الإنسان لكل ما يسعده في الدنيا والآخرة و لكل ما يرضي ربه ويعلي دينه .

أرجو منك أخي أن تقرأ هذه الورقات وتتأمل ما فيها ، فما كان فيها من حق فمن اللَّه وحده وما كان فيها من باطل فمن نفسي والشيطان، أسأل اللَّه أن يجعلك مباركا أينما كنت..

العلم

بدأ اللَّه سبحانه وتعالى وحيه لنبيه بقوله اقرأ بسم ربك الذي خلق، فتكلم عن العلم وأدواته ، وعندما خلق آدم علمه الأسماء كلها، وذلك لأن العلم هو أصل اعتقادات الإنسان وأعماله وأخلاقه، والإنسان يكتسب معلوماته من تجاربه في حياته أو من أي مصدر للمعلومات سواء كان كتاباً أو غيره، فهو يبحث عن كل معلومة تدله على لذته ومنفعته العاجلة والآجلة، فإذا تعلم معلومةً وفكّر فيها صارت اعتقاداً ثم تصبح عملاً ثم تصبح خُلُقاً له، فإذا تعلم الإنسان علماً نافعاً أورثه ذلك الاعتقادات الصحيحة التي تثمر الأقوال والأعمال الصالحة و الأخلاق الكريمة والصفات الحسنة كالصدق والإخلاص وقوة العزيمة والإرادة وعلو الهمة والشجاعة والكرم والصبر والعفة ولهذا قالت عائشة رضي اللَّه عنها عن رسولنا صلى اللَّه عليه وسلم (كان خلقه القرآن)صحيح مسلم.

فتعليم القرآن هو أصل بناء وتربية الإنسان وأصل سعادته في الدنيا والآخرة، ولهذا كانت رحمة اللَّه للإنسان بتعليمه القرآن أعظم من رحمته به يوم أن خلقه ولم يكن شيئاً، يقول تعالى (الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنسان)، فالقرآن روح تحيا به القلوب ونور تشرق وتهتدي به لشرف الدنيا والآخرة قال تعالى{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي به مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} وقال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا} .

ومما يدل على أثر القرآن المعجز في زرع الأخلاق العظيمة، قصة حصلت في عهد النبوة، فقد أرسل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مصعب بن عمير إلى المدينة ليعلم أهلها القرآن وكان هذا قبل هجرة رسول اللَّه إليهم بسنة واحدة فقط وكان مع مصعب بعض السور المكية وخلال هذه السنة حصل تغيير معجز في نفوس الأنصار يصفه سبحانه وتعالى في هذه الآية (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْايمان مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ

مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

يقول تعالى (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ) والايمان لا يُتبوأ لأنه ليس مكانا ولكن هذا من بليغ الكلام الذي يصف عظم ايمانهم ، والايمان رأس العلم ولبه (انظر مفتاح دار السعادة ١-١١٥) والمعنى أنه لو كان الايمان داراً لكان ساكنيه هم الأنصار، ثم يقول تعالى إخباراً عن حالهم وقت الهجرة (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ) أي يحبون المهاجرين الذين سيقاسمونهم أموالهم وديارهم، وهذه تزكيةٌ لهم وشهادة من اللّه المطلع على قلوبهم وعلى سرائرهم، ثم يقول سبحانه (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) والخصاصة هي: الفقر الشديد. والشح صفة جبليّة أصلية في النفس البشرية يقول تعالى (وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ) ، و اللّه تعالى يشهد لهم بأنهم وقوا شح أنفسهم حتى أصبحوا يؤثرون المهاجرين على أنفسهم برغم فقرهم الشديد، فما هو سبب هذا التغيير المعجز في نفوس الأنصار رغم أنهم لم يروا رسول اللّه بعد؟

إنها معجزة القرآن، بعض السور المكية كانت كافية لتحدث هذا الأثر العظيم.

إن المتأمل لسيرة أصحاب رسول اللّه أمثال أبي بكر وعمر قبل الإسلام وبعده يجد أثر هذه المعجزة واضحاً في حياتهم يقول سيد قطب (لقد كان هذا الكتاب هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل من البشر فريد، جيل لم يتكرر بعد في تاريخ البشرية - لا من قبل ولا من بعد - جيل الصحابة الكرام الذين أحدثوا في تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق الممتد، الذي لم يدرس حق دراسته إلى الآن. لقد كان هذا المصدر هو الذي أنشأ هذه المعجزة في عالم البشر، وهي المعجزة التي لا تطاولها جميع المعجزات التي صحبت الرسالات جميعاً) الظلال.

إن تعلم وتعليم القرآن كما كان يعلمه رسولنا صلى اللّه عليه وسلم يغير صفات المسلم فيجعله قوي العزيمة قوي الإرادة شديد الحرص على خدمة دينه، لأن القرآن

يعرفه بربه فيحبه ويخشاه فتصبح هذه المحبة والخشية وقوداً يدفعه إلى كل ما يحبه ربه ويرضاه.

يقول تعالى {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} أي" لكان هذا القرآن " ، يقول سيد (إن طبيعة هذا القرآن لتحتوي على قوة خارقة نافذة، يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحي به، والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال، وهو تاريخ الأمم والأجيال وقطعوا ما هو أصلب من الأرض، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد، وأحيوا ما هو أخمد من الموتى، وهو الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام، والتحول الذي تم في نفوس العرب وحياتهم فنقلهم تلك النقلة الضخمة دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه في النفوس والحياة، أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها، وتحول الأرض عن جمودها، وتحول الموتى عن الموات!) الظلال

لماذا خُلق القلب؟

خلق القلب لذكر اللّه والتفكر في آياته، يقول ابن تيمية (فقد استبان أن القلب إنما خلق لذكر اللّه سبحانه، فإذا كان القلب مشغولا باللّه عاقلا للحق متفكرا في العلم فقد وضع في موضعه كما أن العين إذا صرفت إلى النظر في الأشياء فقد وضعت في موضعها) {الفتاوى}

التفكر والتدبر

التفكر أو التفكير هو تكرار النظر في المعاني التي عرفها الإنسان وربطها ببعضها. ولا ينتفع الإنسان بالعلم إلا بعد أن يتفكر فيه، فإذا تفكر فيه تحول إلى يقين في القلب (اليقين هو علم القلب أو الاعتقاد الذي يصدق به تصديقاً جازماً).

فكل حدث من أحداث الحياة يفسره الإنسان ويفهمه بناء على ما يعتقده ويوقن به، وكل عمل يصدر منه فهو نتيجة لما يعتقده ويوقن به.

يقول ابن القيم (فهاهُنَا خَمْسَة امور الْفِكر وثمرته الْعلم وثمرتهما الْحَالة الَّتِي تحدث للقلب وَثَمَرَة ذَلِك الْإِرادة وثمرتها الْعمل) {مفتاح دار السعادة}

ويقول ايضا (فالفكر هُوَ احضار معرفتين فِي الْقلب ليستثمر مِنْهُمَا معرفَة ثَالِثَة وَمِثَال ذَلِك إِذا احضر فِي قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وَمَا يقْتَرن بِهِ من الآفات وانقطاعه وزواله ثمَّ احضر فِي قلبه الاخرة وَنَعِيمهَا ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدُّنْيَا وَجزم بِهَذَيْنِ العلمين اثمر لَهُ ذَلِك علما ثَالِثا وَهُوَ ان الاخرة وَنَعِيمهَا الْفَاضِل الدَّائِم أولى عِنْد كل عَاقل بإِيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة){مفتاح دار السعادة}.

وتعلم القرآن لا يحصل إلا بتدبر معانيه، والتدبّر هو التفكير والتأمل في معاني القرآن والنظر في عواقبها، فإذا تفكر في هذه المعاني وتدبرها تحولت إلى يقين في القلب. ولا يحصل التدبر والتفكر إلا بعد فهم المعنى (الفهم هو إدراك المعنى وتصوره).

ذكر اللَّه

بدأ اللَّه سورة اقرأ بالكلام عن العلم وأختتمها بالأمر بالصلاة، يقول ابن تيمية: (أعلى أنواع الذكر: الصلاة ثم قراءة القرآن ثم الذكر المطلق) الفتاوى.

فذكر اللَّه يجعل الإنسان لبيباً ذكياً فيفهم العلم بسرعة و يفكر فيه بذكاء حاد يقول الطبري في تفسيره لقوله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) : ومعنى الآية: إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذاكرين اللَّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم يعني بذلك: قيامًا في

صلاتهم، وقعوداً في تشهدهم وفي غير صلاتهم، وعلى جنوبهم نياماً. كما يقول ابن جريج: "الذين يذكرون اللَّه قياماً وقعوداً" الآية، قال: هو ذكر اللَّه في الصلاة وفي غير الصلاة، وقراءة القرآن.

وأما قوله:" ويتفكرون في خلق السموات والأرض"، فإنه يعني بذلك أنهم يعتبرون بصنعة صانع ذلك، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا مَن ليس كمثله شيء، ومن هو مالك كل شيء ورازقه، وخالق كل شيء ومدبره، ومن هو على كل شيء قدير، وبيده الإغناء والإفقار، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة.).

يقول الراغب الأصفهاني (اللُّبُّ: العقل الخالص من الشّوائب، وسمّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان من معانيه، كَاللُّبَابِ واللُّبِّ من الشيء، وقيل: هو ما زكى من العقل، فكلّ لبّ عقل وليس كلّ عقل لبّا، ولهذا علّق اللَّه تعالى الأحكام التي لا يدركها إلّا العقول الزّكيّة بأولي الْأَلْبَابِ) مفردات غريب القرآن.

يقول ابن تيمية عن علاقة الذكر بالتفكر (ومما يوضح ذلك: أن الطالب للعلم بالنظر والاستدلال والتفكر والتدبر لا يحصل له ذلك إن لم ينظر في دليل يفيده العلم بالمدلول عليه، ومتى كان العلم مستفاداً بالنظر فلا بد أن يكون عند الناظر من العلم المذكور الثابت في قلبه ما لا يحتاج حصوله إلى نظر؛ فيكون ذلك المعلوم أصلا وسببا للتفكر الذي يطلب به معلوما آخر، ولهذا كان الذكر متعلقا باللَّه لأنه سبحانه هو الحق المعلوم وكان التفكر في مخلوقاته، كما قال اللَّه تعالى: {الذين يذكرون اللَّه قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض}) {الفتاوى}.

وبالمقابل فإن الغفلة عن الذكر تفسد تفكير الإنسان فإذا غفل الإنسان عن ذكر اللَّه فإنه يتبع هواه وشهواته – كما يقول تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) ويقول (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) – فإذا اتبع هواه وشهواته فإنه لا يستطيع فهم العلم ولا التفكر فيه يقول تعالى عن المنافقين (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ).

فلا غنى لقلب الإنسان عن الذكر، فإذا غفل عن الذكر لحظة، تسلط عليه الشيطان ليزين له شهواته وليزرع في قلبه الاعتقادات الفاسدة ، يقول ابن تيمية: (والشيطان وسواس خناس إذا ذكر العبد ربه خنس فإذا غفل عن ذكره وسوس فلهذا كان ترك ذكر اللَّه سبباً ومبدأً لنزول الاعتقاد الباطل والإرادة الفاسدة في القلب) {الفتاوى}

ويقول كذلك: الخيال محل تصرف الشيطان فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هي عليه (فيصور لك الحق باطلاً والباطل حقاً) قال تعالى: (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ).. {الفتاوى}

يقول ابن عباس: (إن اللَّه لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر أهلها في حال عذر، غير الذكر، فإن اللَّه لم يجعل له حدا ينتهي إليه، ولم يعذر أحدا في تركه، إلا مغلوبا على تركه) تفسير ابن كثير.

يقول ابن القيم (إن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر اللَّه تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر اللَّه تعالى) {الوابل}، ويقول أيضاً عن الذكر (وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه) {المدارج}.

الطريق لذكر اللَّه والصلاة بقلب خاشع :

أولاً: بالاستعانة باللَّه فأكثر من (لا حول ولا قوة إلا باللَّه) و (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك).

ثانياً: بالصبر على الصلاة والإكثار من النوافل مثل صلاة الضحى وقيام الليل قال تعالى:(وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها).

ثالثاً: بتذكر لقاء اللَّه وأنك ستقف أمامه لوحدك ليحاسبك فإن ذلك يثمر الخوف من اللَّه الذي يجعل الإنسان ينتهي عن اتباع الشهوات وبالتالي يخشع في الصلاة قال تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) .

تنبيه: من السنة أن يسوي المصلي بين الأركان في الطول، فيجعل ركوعه وقيامه بعد الركوع، وسجوده، وجلسته بين السجدتين قريبا من السواء في المدة الزمنية وذلك بمقدار عشر تسبيحات مطمئنة، فإن هذا يعين على الخشوع.

الإيمان "رأس العلم ولبه"

إن روح الإيمان وأصله هو اليقين، يقول ابن تيمية (يحصل اليقين بتدبر القرآن وتدبر الآيات الكونية وبالعمل بالعلم) {الفتاوى}، يقول ابن رجب في فتح الباري (واليقين: هو العلم الحاصل للقلب بعد النظر والاستدلال، فيوجب قوة التصديق حتى ينفي الريب ويوجب طمأنينة القلب بالإيمان وسكونه وارتياحه به، وقد جعله ابن مسعود الإيمان كله، وهذا مما يتعلق به من يقول: إن الإيمان مجرد التصديق ، حيث جعل اليقين: الإيمان كله، فحصره في اليقين، ولكن لم يرد ابن مسعود أن ينفي الأعمال من الإيمان، إنما مراده: أن اليقين هو أصل الإيمان كله، فإذا أيقن القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر انبعثت الجوارح كلها للاستعداد للقاء الله تعالى بالأعمال الصالحة فنشأ ذلك كله عن اليقين) ، فإذا زاد اليقين زادت أعمال القلب من محبة وخشية ورجاء وإخلاص وصدق وتوكل وصبر وشكر ورضا وغيرها يقول ابن القيم: (فاليقين هو روح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمال الجوارح). {المدارج }، وهذا هو أصل الإيمان (قول القلب وعمله وانظر الفتاوى ٧- ١٨٦، ٥٤١) الذي يثمر الأقوال والأعمال الصالحة، وهذه الأقوال والأعمال الصالحة مثل الجهاد والإنفاق في سبيل الله والصدق التي أثمرها أصل الإيمان تتحول إلى أخلاق وعادات حسنة، فالإنفاق يثمر الكرم والجهاد يثمر الشجاعة، فكل قولٍ أو عملٍ صالح يداوم عليه الإنسان فإنه يزرع فيه خلقاً كريماً مثل: الصدق والعفة والصبر والحياء وقوة العزيمة وغيرها، ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم (أكمل المؤمنين إيماناً

أحسنهم خلقا)، وقال أيضاً (والحياء شعبة من الإيمان)، وقال أيضاً (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، وقال اللَّه لرسوله وهو أكمل الخلق إيماناً (وإنك لعلى خلق عظيم)، قالت عائشة رضي اللَّه عنها "كان خلقه القرآن" يقول ابن كثير في تفسيره: ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجية له وخلقا تطبعه وترك طبعه الجبلي.

يتكلم ابن القيم عن قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب اللَّه مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) وسر تشبيه المؤمن بالنخلة فيقول: (وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به ويقتضيه علم الذي تكلم به وحكمته، فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام؛ ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدي والدل المرضي، فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل اللَّه كتابه به والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسله والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر، والهدي والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) {اعلام الموقعين}.

وفي المقابل فإن اللَّه ذكر في سورة النساء أن المنافقين لا يذكرون اللَّه إلا قليلا، ويوبخهم في سورة محمد بأنهم لا يدركون معنى ما يقال لهم بسبب اتباع الهوى، ويلومهم على عدم تدبر القرآن في معرض كلامه عنهم في سورة النساء، وبالتالي لا يحصل في قلوبهم علم ولا يقين ولا إخلاص ولا محبة وأعمالهم فاسدة فإن قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وأخلاقهم الكذب والغدر والخيانة و الشح والجبن.

الهوى " آفة العلم "

الهوى هو إرادة النفس لما تستلذّه فإذا اتبع الإنسان هواه طغى وظلم.

فأصل الهوى هو محبة النفس وملذاتها الحسية أو المعنوية كالأكل والنوم والكلام، وحب المال و الشرف والمكانة يقول ابن القيم (الهوى هو ميل الطبع إلى ما يلائمه وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح فالهوى مستحث لها لما يريده كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه.

ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر لأنه يندر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده فلذلك لم يذكر اللّه تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه) روضة المحبين.

فإذا غفل الإنسان عن ذكر اللّه فإن الشيطان يوسوس له و يزين له هواه ويدفعه للتفكر فيه حتى يصبح إرادة جازمة فيتبعه، فيسرف في المباحات ثم ينتقل المعاصي والمحرمات ثم الكفر وربما طغى أكثر و صد الناس عن دين اللّه وربما طغى أكثر وادعى الربوبية والألوهية مثل فرعون.

ولا يكبح الهوى ويمنع الإنسان من اتباعه إلا الخوف من اللّه وخشيته يقول تعالى (فَأَمَّا مَنْ طَغَى، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى).

والإيمان يضعف بمقدار اتباع الهوى ويقوى بمقدار مخالفته، فربما يتبع المسلم هواه حتى تظهر فيه بعض خصال المنافقين ثم يتمادى في اتباع الهوى حتى يصبح منافقاً أو كافراً والعياذ باللّه.

فإذا كان في القلب إيمان وهوى (وهذا هو القلب المريض) فإنك تجده يتمرد على أوامر اللَّه ويتعنت ويتبعها على مضض كبني إسرائيل مع موسى (تأمل أوائل سورة البقرة).

وأما إذا امتلأ القلب بالهوى ولم يبق فيه إيمان (وهذا هو القلب القاسي الميت) فإنه إما أن يكذب أوامر اللَّه أو يستكبر عنها ويمتنع عن الانقياد لها كفرعون.

هذه بعض صفات أهل الهوى، وهم درجات منهم المسلم الذي في قلبه مرض الذي فيه بعض هذه الصفات ومنهم المنافق ومنهم الكافر قاسي القلب الذي اجتمعت فيه كل الصفات، فكلما اشتد مرض القلب بالهوى كلما زادت هذه الصفات سوءاً:

– عدم الذكر والتفكر في آيات اللَّه: فهو غافل عن ذكر اللَّه كما يقول تعالى عن المنافقين (وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا) ، ويضيق صدره من ذكر اللَّه (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ).

ولا يتدبر ولا يتفكر إلا في شهواته وما يمليه عليه الشيطان، يقول تعالى للمنافقين في سورة النساء (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ).

– يعظم الدنيا وزينتها لأنها مصدر لذته، ولا يتبع إلا من ملك أسباب القوة والمال (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا) ، فالحق عنده مرتبط بالقوة وبالأسباب الدنيوية (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)، ويكذب بالغيب فلا يؤمن باللَّه ولا باليوم الآخر بالمقابل (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً).

– أعماله الظاهرة والباطنة وأخلاقه: يكره الدين لأنه يحول بينه وبين شهواته، ويعاديه يقول تعالى عن المنافقين (هم العدو فاحذرهم) ويسعى بالفتنة بين المسلمين (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) وينشر

الشائعات المرجفة أو المثبطة (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ) ، ويدافع عن الكافرين ويواليهم (مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ)

يكفر بالنعم ويتكبر عليها ويطغى فيها ويملها كما ذكر عن سبأ (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)

لا صبر له على المصائب بل يجزع وسرعان ما ييأس ويقنط فإذا أنعم اللَّه عليه أعرض وأمن مكر اللَّه (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)، (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ)

الكذب ، إخلاف الوعد، الفجور في الخصومة، الخيانة، المكر والاحتيال وذلك لأن دينه هوى نفسه ولذتها فلا يبالي بأي طريق وصل إليها.

العجز و الكسل لأنه يظن أنه ليس لحياته غاية خلق من أجلها .

شدة الشح والبخل والجبن لأن غايته نفسه وملذاتها فهو يحيا من أجلها، أما المؤمن فغايته رضا ربه ونصرة دينه فيبذل نفسه وماله لدينه (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)

الحسد وهو متولد من شدة الشح (انظر الفتاوى ١٠-١٢٩) فهو يكره أن ينعم اللَّه على غيره (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ)

الكبر لعجبه بنفسه فيغضب لنفسه ويرضى ويفرح لها، فيزكي نفسه، ويلوم ويحتقر الناس ويستهزئ بهم، ويسيئ الظن بهم، ويتهم بالباطل، ويغتاب حتى ينتقص الناس ويرضي حب العلو والكبر في نفسه.

الذلة والخضوع لما تهواه نفسه بل ربما يعبده كبني إسرائيل حينما عبدوا العجل (واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم)، والتكبر على أي شيء لا تهواه نفسه (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون).

تنبيهات:

- الصلاة الخاشعة تنهى الإنسان عن اتباع الهوى وعن آثاره الفاسدة يقول تعالى (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)، وجميع الأفعال والصفات والأخلاق الذميمة التي يثمرها اتباع الهوى تدخل في معنى الفحشاء والمنكر.
- الغواية والطغيان والظلم الفاظ يذكرها القرآن لها علاقة بالهوى، فالغواية ضد الرشد وهي اتباع الشهوات (الفتاوى ٢-٤٣) والطغيان هو مجاوزة الحد، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وأعظم ما يدفع الإنسان للطغيان والظلم هو اتباع الهوى.

وفي المقابل فإن الخشية والتقوى والخشوع أعمال للقلب تمنع الإنسان من اتباع الهوى تكون على مقدار علم الإنسان بربه ويقينه باليوم الآخر.

الإدراك والإرادة

للقلب إدراك وشعور وتصور لكل ما يرد عليه، وبناء على ما يرد عليه يكون له إرادة وهم وعزم ، فإذا تغيرت المُدركات التي ترد عليه، تغيرت الإرادة تبعاً.

فالقلب يدرك المعاني إذا تصورها وفهمها، ويدرك كذلك الأحاسيس إذا شعر بها.

أما الإرادة فهي حب النافع وبغض الضار وهذا يثمر الهم والعزم على العمل.

مثلاً: لو قيل لك أن العسل لذيذ وأدركت معنى هذه الجملة فإنه سيتكون فيك إرادة لتذوق العسل.

فإذا تذوقت العسل وشعرت بطعمه فإنه سيتكون فيك إرادة لتذوق المزيد منه.

فالإدراك ينتج الإرادة ولكن الإرادة والمحبة إذا قويت فإنها تحكم الإدراك وتوجهه، فإدراك الإنسان لما يحب أقوى وأسرع من إدراكه لما لا يحب، بل ربما يصل الأمر لأن تستولي المحبة على إدراك الشخص فلا يدرك سواها.

في الحديث القدسي يقول اللّه (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ

الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ) يقول ابن تيمية (فإن ولي اللَّه لكمال محبته للَّه وطاعته للَّه يبقى إدراكه للَّه وباللَّه وعمله للَّه وباللَّه؛ فما يسمعه مما يحبه الحق أحبه وما يسمعه مما يبغضه الحق أبغضه وما يراه مما يحبه الحق أحبه وما يراه مما يبغضه الحق أبغضه) {الفتاوى}، ويقول ابن القيم (فأطيب الحياة على الإطلاق حياة هذا العبد، فإنه محب محبوب، متقرب إلى ربه، وربه قريب منه، قد صار له حبيبه لفرط استيلائه على قلبه ولهجه بذكره وعكوف همته على مرضاته بمنزلة سمعه وبصره ويده ورجله، وهذه آلات إدراكه وعمله) {المدارج}.
وإذا فسد الإدراك والفهم والشعور فسدت الإرادة، فإذا قويت الإرادة الفاسدة فإنها تحكم الإدراك والفهم وتوجهه وتستولي عليه.

فيفسد الإدراك بالشبهات (وهي المعلومات والاعتقادات الفاسدة، وسُمِّيَت شُبْهَات لأنها تشبه الحق، فيظنها الإنسان حقاً وهي ليست كذلك)، فيعتقدها الإنسان و يبني عليها نظرته لما حوله، فتنحرف إرادته تبعاً.

وتفسد الإرادة إذا أصبحت متجهةً للشهوة وهوى النفس.

فإذا استولت الشهوة والهوى على الإدراك فإن القلب يصبح قاسياً ميتاً فلا يفهم العلم مثل المنافقين (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)، ومثل الكفار أيضاً يقول تعالى عنهم (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) فمثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، فتسمع صوته ولكن لا تدرك معنى ما يقول.

وإذا فهمه فإنه إما أن يكذبه ويعرض عنه يقول تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ).

أو يحرف معانيه بعد فهمها ثم سرعان ما ينساها (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ).

ولا يحرر الإدراك من سلطة الهوى إلا خشية اللّه والخوف منه، فالخشية تميت الهوى يقول تعالى واصفاً إدراك أهل الخشية (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ).

وتدبر القرآن شفاء لجميع أمراض القلب التي تفسد الإدراك والإرادة يقول ابن تيمية : (والقرآن شفاء لما في الصدور، ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يبيّن الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب، فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره، فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي، بعد أن كان مريدا للغي مبغضا للرشاد). {الفتاوى}

– كيف يغير القرآن إدراك المتفكر فيه وإرادته؟

إدراك القلب لمعنى الآية يكون بفهمه وتصوره لهذا المعنى، ثم إذا تفكر في هذا المعنى وتدبره تحول إلى يقين (اعتقاد جازم)، فإذا تغيرت الاعتقادات بمعاني الآيات فإن ذلك يثمر محبة اللّه وخشيته فيصبح القلب حياً سليماً.

فمحبة اللّه تجعله يقبل على أوامره بإرادة قوية جداً، ويدرك كلام اللّه بتعظيم واهتمام.

والخشية تمنع من صرف شيء من الإرادة للهوى، وهذا يثمر تحرر الإدراك من سلطة الهوى.

فيصح إدراكه لكل أمور الحياة، فيرى الأشياء على ماهي عليه في الحقيقة، وذلك لأن اللّه وصف حقائق الأشياء في القرآن، ويقوى إدراكه فيرى ويلاحظ ويشعر ويفهم ما لا يراه ولا يلاحظه ولا يشعر به ولا يفهمه غيره .

وتصح الإرادة فيصبح محباً للّه ومحباً لكل ما يحبه، مبغضا لكل ما يبغضه، وتقوى إرادته وعزيمته كذلك فيعمل وينجز ما لا ينجزه غيره.

فالمسلمين هم أكمل الناس إدراكاً وإرادة، يقول ابن تيمية: (فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدّ وأسدّ عقلا وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال... وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه) الفتاوى.

- ما الفرق بين السور المكية والمدنية؟

إن المتأمل في السور المكية يجدها تعرف باللَّه واليوم الآخر ولا تفصل في الأحكام . بينما يجد السور المدنية تأمر بالأعمال الصالحة وتفصل في الأحكام أكثر و تجد الآيات التي تعرف باللَّه واليوم الآخر أقل مقارنةً بالسور المكية.

فالآيات التي تعرف باللَّه واليوم الآخر، تزرع محبة اللَّه وخشيته في قلب المؤمن، وهذا أصل علاقة الإنسان بربه وهو الأساس الذي تُبنى عليه آيات الأوامر والأحكام.

(ولهذا تجد أن الآيات المدنية التي تأمر بالأعمال وتفصل في الأحكام تذكّر دائما بهذه العلاقة).

أما الآيات التي تحث على الأعمال الصالحة، فتهتم في جزء منها بتغيير إدراك الإنسان وفهمه لحقيقة وطبيعة العمل، والجزء الآخر يأمر بالعمل ويرغب فيه ويرهب من تركه، وحتى تتبين الصورة أكثر، سأتكلم عن آيات الجهاد والإنفاق.

فجزء من آيات الجهاد تخبر بأن النصر من عند اللَّه وليس بكثرة العدد والعدة، وأن اللَّه يمد المؤمنين بالملائكة ويلقي في قلوب الكافرين الرعب، وأن الجهاد هو عذاب اللَّه للكافرين بأيدي المؤمنين، فهذه الآيات تغير معتقدات الإنسان وإدراكه وفهمه للجهاد من المنظور المادي البحت إلى هذا الفهم الجديد، وهذا يثمر له إرادة للجهاد في سبيل اللَّه وذلك لأنه أصبح موقناً بمعية اللَّه وتأييده وبأنه ينصر جنده مهما كثر عدد جنود الشيطان وعدتهم.

أما آيات الإنفاق فتخبر بأن اللّه يرزق الدواب التي لا تحمل رزقها، وأن اللّه يخلف علينا ما ننفقه في سبيله، فهذه الآيات تغير معتقدات الإنسان وإدراكه وفهمه للرزق والإنفاق، فلا يخشى انقطاع الرزق لأن اللّه متكفل به لكل المخلوقات، ولا يخشى الفقر من كثرة الإنفاق في سبيل اللّه لأن اللّه وعد بأنه سيخلفه بالبدل.

وتجد الجزء الآخر من هذه الآيات تأمر بالجهاد وبالإنفاق وترغب فيهما أو ترهب من تركهما، وهذه الآيات تجعل الإنسان يدرك مقدار أهمية هذين العملين وخطورة تركهما، فتزداد إرادته لهما .

ملاحظات: - مما يشغل إدراك القلب عن الوحي العلوم الأخرى ، فإذا اشغل الانسان قلبه بها فأن إرادته ستميل إليها، وستضعف إرادته للوحي تبعاً.

القلب السليم

الإدراك

فهم معاني القرآن

...

الذكر بقلب حاضر

التفكر في معاني القرآن

اليقين

إرادة وجه اللّٰه ومحبته والإخلاص والصدق والخوف والرجاء

الأقوال والأعمال الصالحة

الأخلاق الكريمة مثل قوة العزيمة والصبر والكرم والشجاعة والصدق

القلب القاسي

الإدراك

وساوس النفس والشيطان

...

الغفلة عن ذكر اللّٰه

التفكر في الوساوس

المعتقدات الفاسدة

خوف اللّٰه وخشيته

تميت الهوى

إرادة الهوى والشهوة

المعاصي واتباع الهوى

الأخلاق الذميمة: الكذب الغدر الخيانة الجبن البخل

أثـر العلم

إن ما يؤمن به القلب من معتقدات يتحول عملاً ثم خلقاً كما بينّا، و يظهر أثره على قلبه ثم جسده ثم بعد هذا يظهر أثره على الأرض.

فأول آثار المعتقدات الفاسدة وما تثمره من معاصي هي ألم القلب بالهم والحزن ثم تظهر على الجسد بالألم والمرض وربما تنقلب صورته الظاهرة فيُمسخ ثم يظهر الفساد في الأرض من الجدب وانعدام الأمن ثم إذا كانت هذه المعصية ظاهرة في جماعة من الناس فإن اللَّه يعمهم بعقوبة ظاهرة كالزلال أو الفيضانات أو الأمراض والأوجاع ثم بعد هذا عذاب الآخرة والعياذ باللَّه يقول تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) .

وأول آثار المعتقدات الصالحة وما تثمره من طاعات هي طمأنينة في القلب وانشراح الصدر ثم تظهر على الجسد قوة ونوراً وعافية ثم على الأرض صلاحاً وبركة ثم بعد هذا نعيم الآخرة الخالد.

يقول ابن القيم عن الآثار القلبية (ولا تحسبْ أنّ قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ } مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار لقرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟) الداء والدواء

ويقول عن الآثار القلبية والجسدية (ومنها (أي ومن آثار المعاصي): ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سوادا في الوجه حتى يراه كل أحد.

قال بن عباس: إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادا في الوجه، وظلمة في القبر والقلب، ووهنا في البدن، ونقصا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق) الداء والدواء ويقول أيضا (قال بعض أهل العلم: إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق، وانصبغ بذلك صبغاً تاما، صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك: من القردة، والخنازير، وغيرهما، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوا خفياً ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهراً على الوجه، ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة، كما قلب الهيئة الباطنة، ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن، فقل أن ترى محتالاً مكاراً مخادعاً ختارا إلا وعلى وجهه مسخة قرد، وقل ترى رافضياً إلا وعلى وجهه مسخة خنزير، وقل أن ترى شرها نهما، نفسه نفس كلبية إلا وعلى وجهه مسخة كلب.
فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط، فإذا استحكمت الصفات المذمومة في النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة) إغاثة اللهفان.
أما آثار الطاعات على الأرض فيقول تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وعن آثار المعاصي يقول (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).
إذا فهمت هذه الآثار وتفكرت فيها عرفت أن العلم النافع هو أساس صلاح قلب الإنسان وجسده والأرض من حوله وعرفت لماذا ابتدأ اللَّه وحيه بالكلام عن العلم ولماذا حينما خلق آدم علمه الأسماء كلها ولماذا كان تعليم القرآن للإنسان هو أعظم رحمة رحمه بها قال تعالى (الرحمن، علم القرآن).

هذا الجزء يبين بعض الأمور حول واقعنا الحالي:

لماذا اتباع الجيل الأول هو منهجنا؟

في صحيح البخاري: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

قال الشيخ ابن تيمية: لكن المقصود أن يعرف أن الصحابة خير القرون وأفضل الخلق بعد الأنبياء، فما ظهر فيمن بعدهم مما يظن أنها فضيلة للمتأخرين ولم تكن فيهم فإنها من الشيطان وهي نقيصة لا فضيلة سواء كانت من جنس العلوم أومن جنس العبادات أو من جنس الخوارق والآيات أو من جنس السياسة والملك، بل خير الناس بعدهم أتبعهم لهم. {الفتاوى}.

يقول الشيخ عبدالكريم بن حميد: هذا الكلام قاعدة عامة في كل شيء وهو إنما ذكره الشيخ رحمه اللَّه كتفسير للآيات والأحاديث الواردة في فضل الرعيل الأول، فقد ظهر بعد الصحابة رضي اللَّه عنهم من العلوم (أقول: يقصد العلوم الحادثة بعدهم مثل العلوم الطبيعية كالرياضيات والفيزياء والكيمياء ..) وغيرها ما يصعب حصره ولم يكن ذلك فيهم بل أحدث بعدهم وكل يدعي أن ما أحدثه فضيلة ولولا هذا الزعم الفاسد لاكتفي بالإتباع عن الإحداث والمراد أن ما أحدث فهو من الشيطان وهو نقيصة لا فضيلة، والموفق يزن نفسه بهذه الموازين، كما قال الأوزاعي رحمه اللَّه: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوها وحسنوها فإن الأمر ينجلي وأنت منه على صراط مستقيم. انتهى. بيان العلم الأصيل .

أقول: وقد يُشكل هذا على القارئ لأن كثير من الناس يظن أنه يمكن أن يتطور الجانب المادي الدنيوي في الحياة دون التأثير على جانب العبادة وهذا لا يحصل، فقد كمل

اللَّه الجيل الأول –جيله صلى اللَّه عليه وسلم – من كل جانب فقد كان الجانب المادي – أي ما نسميه الحضارة – متواضعاً وكانت بالتالي الشهوات قليلة وكانت عبادتهم كثيرةً مقارنةً بنا ثم تطور الجانب المادي بعدهم حتى وصل الحال لما هو عليه هذا الزمن فزادت الشهوات وقلت العبادة تبعاً يقول تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا). والمقصود أن اللَّه جعل جيل الصحابة مثالياً من كل جانب فخير الناس بعدهم أتبعهم لهم سواء في الجانب المادي أو جانب العبادة .

كما أن هناك تصور ساذج عند كثير من المسلمين عن الشيطان ومكره وكيده فيظن أن الشيطان لا يوسوس إلا بالمعاصي والكفر أو بما يضر ضرراً واضحاً جلياً في الدين والدنيا وليس الأمر كذلك فقد يوسوس الشيطان للمسلم بعملٍ مستحب حتى يشغله به عن عملٍ واجب وقد يوسوس بعمل شيء فيه نفع دنيوي ظاهر حتى يشغل به المسلم عن عمل أحب إلى اللَّه منه، ولذلك فكل ما أُحدث بعد الجيل الأول فهو من الشيطان لأن الجيل الأول كانوا أكمل الناس في تحقيق ما خُلِقوا من أجله في جميع جوانب حياتهم.

العلوم الدنيوية

أما بالنسبة للعلوم الرياضية والطبيعية مثل الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبية وغيرها فهي علوم لا تزكي النفس ولا سعادة للمرء فيها قال ابن تيمية: (فإن علم الحساب الذي هو علم بالكمّ المنفصل والهندسة التي هي علم بالكم المتصل علم يقيني لا يحتمل النقيض البتّة مثل جمع الأعداد وقسمتها وضربها ونسبة بعضها إلى بعض؛ فإنك إذا جمعت مائة إلى مائة علمت أنهما مائتان، وذكر كلاماً ثم قال : والمقصود أن هذا العلم الذي تقوم عليه براهين صادقة لكن لا تكمل بذلك نفس ولا تنجو من عذاب، ولا تنال به سعادة) { الفتاوى }

وإنما إذا رأى الإمام أن هناك حاجة لها فليستنفر من شباب المسلمين من يراه ميالاً لها عنده استعداداً لتعلمها و لا تكون هذه العلوم مفروضة على كل طالب، بل تُقدر الحاجة بقدرها كما أمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم زيد بن ثابت بتعلم اللغة العبرية لغة اليهود لضرورة شرعية لأجل مكاتبته لهم للدعوة فاكتفى فيها صلى اللَّه عليه وسلم بواحد، ومعلومٌ عند السلف ضرر تعلم لغات الأعاجم يقول ابن تيمية (أن الإمام أحمد أخذ بحديث عمر رضي اللَّه عنه الذي فيه النهي عن رطانتهم) {اقتضاء الصراط المستقيم } ، ونقل ابن تيمية عن مالك رحمه اللَّه أنَّه قال : ونهى عمر رضي اللَّه عنه عن رطانة الأعاجم وقال : إنها خِبٌّ (والخِب بكسر الخاء : الانطواء على اللؤم الفساد والخَب بفتح الخاء : الرجل المفسد) {اقتضاء الصراط المستقيم} ، قال ابن تيمية : (اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخُلق والدين تأثيراً قوياً بيناً بحسب تلك اللغة). {اقتضاء الصراط المستقيم }.

فهذه العلوم الرياضية والطبيعية تحتاج إلى تفكر حتى يفهمها المتعلم أولاً ثم يبدع فيها ثانياً (وكاتب هذه الورقات قضى عشر سنوات في دراسة الطب و التخصص فيه، والطب الحديث بُني على هذه العلوم).

فهذه العلوم مشغلةٌ للقلب عما هُيء له من ذكر اللَّه والتفكر في آياته القرآنية والكونية وتعلم وحيه، **فإذا اشتغل الإنسان بهذه العلوم الطبيعية فقد صرف قلبه للتفكر فيما لم يخلق له وللإنسان طاقة محددة للتفكر إذا صرفها لغير علم الوحي فإنه لا ينتفع بعلم الوحي، وما جعل اللَّه لرجل من قلبين في جوفه، يقول ابن القيم (فإذا امتلأ القلب بالشغل بالمخلوق والعلوم التي لا تنفع لم يبق فيه موضع للشغل باللَّه ومعرفة أسمائه وصفاته وأحكامه، وسِرّ ذلك أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن فإذا أصغى إلى غير حديث اللَّه لم يبق فيه إصغاء ولا فهم**

لحديثه ، كما إذا مال لغير محبة اللَّه لم يبق فيه ميل إلى محبته)

{الفوائد}، ولذلك يقول شيخ الإسلام : إن العلوم المفضولة إذا زاحمت العلوم الفاضلة وأضعفتها فإنها تحرم. {بيان العلم الأصيل}، قال الأوزاعي: العلم ما جاء عن أصحاب محمد، ومالم يجيء عنهم فليس بعلم. {البداية والنهاية}.

قال النبي – صلى اللَّه عليه وسلم – : (يتقارب الزمان، وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، قيل يا رسول اللَّه : أيم هو ؟ قال : القتل القتل) البخاري

قال أبو حاتم : في هذا الخبر كالدليل على أن مالم ينقص من العلم ليس بعلم الدين في الحقيقة إذ أخبر المصطفى – صلى اللَّه عليه وسلم – أن العلم ينقص عند تقارب الزمان وفيه دليل على أن ضد العلم يزيد وكل شيء زاد مما لم يكن مرجعه إلى الكتاب والسنة فهو ضد العلم . {مقدمة المجروحين لابن حبان}

تأمل قوله وكل شيء زاد مما لم يكن مرجعه إلى الكتاب والسنة فهو ضد العلم وتفقد ما زاد وما نقص في هذا الزمان .

قاعدة في جميع العلوم الدنيوية:

يقول الشيخ ابن تيمية : (العلم الموروث عن النبي – صلى اللَّه عليه وسلم –؛ فإنه هو الذي يستحق أن يسمى علما، وما سواه إما أن يكون علما فلا يكون نافعا، وإما أن لا يكون علما وإن سمي به، ولئن كان علما نافعا فلابد أن يكون في ميراث محمد – صلى اللَّه عليه وسلم – ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه). {الفتاوى}

–هل كان الصحابة يتعلمون مع الوحي غيره ؟

كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم يعلمهم القرآن ومعانيه ويفقههم في دينهم، ولم يكونوا يتعلمون من أي مصدر آخر، بل غضب النبي حينما رأى عمر يقرأ من التوراة.

و في عهد عمر حينما وجد المسلمون كتبا في الإسكندرية من كتب الروم ، أمر بها عمر أن تحرق وقال حسبنا كتاب اللّٰه . {الفتاوى}

– هل يصح أن نقول عن الآيات التي تكلمت عن العلم أنه يدخل في معناها العلوم الطبيعية؟

قال ابن تيمية : (من فسّر القرآن والحديث وتأوله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على اللّٰه ملحد في آيات اللّٰه محرف للكلم عن مواضعه)، وقال أيضاً : (لا يجوز استعمال ظواهر الكتاب قبل البحث عما يُفسرها من السنة وأقوال الصحابة والتابعين وغيرهم) . {الفتاوى}

– هل تفسد هذه العلوم اعتقادات المسلم ؟ وهل يكفي إزالة النظريات الكبيرة التي تصادم عقائدنا مثل نظرية "فناء الطاقة"؟

الأمر أكثر تعقيداً، فهناك اختلاط جزئي في بقية النظريات بين وصف الملاحظة العلمية و العقائد الفاسدة، مما يمنع فصلها، وبالتالي قبول المتعلم للجزء الذي يصادم الوحي دون شعور منه، ثم يتعذر عليه الجمع بين هذه النظريات والوحي، فيعطل الوحي أو يؤوله أو ربما كذبه والعياذ باللّٰه (انظر لكتاب الفرقان في بيان إعجاز القرآن للشيخ عبدالكريم الحميد فقد تكلم عن نظريات الفلك الشهيرة وبين مناقضتها للوحي، وبين كيف تم تعطيل وتأويل الوحي ليوافق هذه العلوم).

إن المتأمل في الداروينية ونظرية الانفجار الكبير وتسلسلهما ليعلم أن مقصود هذه النظريات هو نفي وجود خالق حكيم، ولهذا تجد الإلحاد ينتشر بين أبناء المسلمين بسبب هذه العلوم والإحصائيات تدل على هذا واللّٰه المستعان.

إن من مكر إبليس ليلبس على المسلمين دينهم أنه يوحي إلى أولياءه بأن ينسبون سنن اللَّه الكونية لعقائد شركية إلحادية يسمونها "نظريات علمية" يقول تعالى (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ).

فالنظرية الداروينية أصلها باطل يناقض الوحي مناقضه تامة ولكن بعض فروعها تصف بعض السنن الكونية بطريقة صحيحة جزئياً، فيأتي المتعلم فيرى أن هذه السنن متحققة فعلاً فيقبل بأصل النظرية الباطل ويدخل في دوامة الشك هذا إن لم يؤدي به ذلك للإلحاد.

ومن مكره أيضاً أن يسمي الأمور بغير اسمها فالشجرة التي نهى اللَّه عنها آدم سماها "شجرة الخلد وملك لا يبلى" و يسمي الخمور هذه الأيام "مشروبات روحية" وكذلك يسمي العقائد الباطلة الملحدة "نظريات علمية" حتى تقبلها النفس ولا تنفر منها.

وكثير من أهل العلم والفضل في زماننا خُدعوا لأنهم لا يعلمون أن السم مدسوس في العسل، فهم لم يدرسوا هذه العلوم، ولكن رأوا نتاجاً فتوهموا أن العلم الذي أنتج هذا نافع من كل وجه، وهو وإن كان نافعاً في بعض أمور الدنيا وذلك لأنه يصف الواقع بطريقة صحيحة جزئياً إلا أن ضرره قاتل للدين الذي هو أعظم الضروريات .

لقد علم إبليس وجنوده من الجن والإنس أنه لا طاقة لهم بالمسلمين ما اعتصموا بكتاب اللَّه، فتواصوا بما قال اللَّه عنهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)، فكان من نتائج كيده وكيد جنوده هذه العلوم المبنية على التعطيل والإلحاد، وليس الأمر كذلك وحسب، بل هذه العلوم تحتاج إلى تفكر حتى يفهمها الإنسان ثم يبدع فيها، فينشغل قلب الإنسان عن التفكر في الوحي بالتفكر في هذه العلوم، حتى ينتج منها شيئاً لا يحتاجه، لأن اللَّه قد ضمن له النصر بغير هذا الطريق العقيم.

كما أن هذه العلوم تصف الواقع وصفاً جزئياً، ولا تأخذ بالاعتبار كل العوامل المؤثرة مما يؤدي إلى تناقضها، وانظر إلى الفيزياء الميكانيكية والكمية وتناقضهما، ثم يأتي

من يقول أن هذه العلوم من السير في الأرض والتفكر الذي أمر اللّه به، كيف يتفكر الإنسان في علم متناقض يصف الواقع بطريقة خاطئة!؟

بل التفكر فيها يصد المسلم عن الفهم الصحيح للقرآن ولسنن اللّه في الكون.

كما أن هذه العلوم المبنية على التعطيل والإلحاد توهم أن السبب هو المسئول عن النتيجة وليس قدرة اللّه الذي خلق السبب والمسبب، فالقرآن يزرع في نفس المسلم بأن السبب والمسبب من آثار قدرة اللّه ولهذا لا يذكر القرآن السبب وحده دون ربطه بقدرة اللّه يقول تعالى (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ).

تفكر في الآية السابقة، من أنزل الماء ؟ ومن أنبت بالماء جنات النخيل والأعناب؟

لماذا لا يقول اللّه: ينزل المطر من السماء فيقوم الماء بإنبات جنات النخيل والأعناب؟

لماذا يربط إنزال المطر بقدرته سبحانه مع أن هذا من البديهيات ولماذا يربط النتيجة أيضاً وهي إنبات النخيل والأعناب عن طريق الماء بقدرته سبحانه مع أن هذا أيضا من البديهيات؟

إن تكرار ربط هذه الظواهر بقدرة اللّه ليس زيادةً ولا عبثاً تعالى اللّه عن ذلك فاللّه لا يقول شيئاً إلا لحكمة.

إن طريقة القرآن في ذكر السبب والنتيجة وربطهما بقدرة اللّه دائماً هي الطريقة الوحيدة التي لا يحيد بها العقل البشري ويضل عن سواء الصراط .

أما في كتب العلوم المادية فيتم فصل السبب والنتيجة عن قدرة اللّه، وهذا مع الوقت ومع التكرار ينشئ عند المتعلم اعتقاداً أن هذه الأسباب فاعلة بذاتها .

إن العلاقة بين السبب والنتيجة بالمنظور المادي ليست مطردة دائماً كما توهم هذه العلوم ، فالبركة مثلاً أمر يحصل بلا سبب مادي وكذلك نصر اللّه للمؤمنين في الجهاد يحصل برغم قلة عدد المؤمنين وعدتهم مقارنة بالكافرين، وكذلك ما يحصل من

الكرامات والخوارق يحصل بلا سبب مادي ولكن من يشغل قلبه بهذه العلوم المادية فإنها تؤدي به إلى ضعف اليقين في الأمور السابقة التي تحصل بلا سبب مادي.

ولكن هذه العلوم نافعة كالطب ؟

لا شك في ذلك ولكن ضررها أكبر من نفعها على الدين وعلى قلب من يتعلمها وينشغل بها كما ذكرنا.

وأعلم أخي أن أثر الدواء والغذاء على جسد الإنسان مرتبط ارتباطا وثيقاً بما يؤمن به ويعتقده، فإذا تقاربت اعتقادات شخصين تقاربت أدويتهما وأغذيتهما وإذا اختلفت الاعتقادات اختلفت الأدوية والأغذية، فكلما اتصل الإنسان بربه واقتربت حياته من حياة الصحابة كلما انتفع أكثر بالأدوية والأغذية النبوية، وكلما اقتربت معتقداته من معتقدات الغربيين الفاسدة واقتربت حياته من حياتهم كلما انتفع بأدويتهم وأغذيتهم الفاسدة.

وفي هذا الزمن أصبح المسلمون يتعلمون معتقدات الغرب الكافر في مدارسهم وجامعاتهم بل ويتعلمونها في بيوتهم بوسائل الإعلام الحديثة، وصاروا يتنافسون في تقليد الغرب في طرق معيشتهم حتى صارت حياتهم مستنسخة من حياة الغرب، فأصبح الإنسان لا يفرق بين شباب المسلمين وشباب الغرب لا في المعتقدات ولا في طريقة الحياة وهذا مصداقا لحديث الصادق المصدوق صلى اللّه عليه و سلم حينما قال (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه) . قلنا يا رسول اللّه اليهود والنصارى ؟ قال (فمن).

فأصبح الغذاء والدواء واحداً لتماثل كثير من المعتقدات .

ولو عاد المسلمون إلى دينهم وعادوا لما كان عليه الجيل الأول لأصبحت الأدوية والأغذية النبوية هي المؤثرة فيهم ولقل أثر أدوية الغرب فيهم.

يقول ابن القيم حينما تكلم عن مصادر الطب (وأين يقع هذا وأمثاله من الوحي الذي يوحيه اللّه إلى رسوله بما ينفعه ويضره فنسبة ما عندهم من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء بل هاهنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم يهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم من الأدوية القلبية، والروحانية، وقوة القلب واعتماده على اللّه، والتوكل عليه، والالتجاء إليه، والانطراح والانكسار بين يديه، والتذلل له، والصدقة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، والإحسان إلى الخلق، وإغاثة الملهوف، والتفريج عن المكروب، فإن هذه الأدوية قد جربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها، فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لا يصل إليه علم أعلم الأطباء، ولا تجربته، ولا قياسه.

وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أمورا كثيرة، ورأيناها تفعل ما لا تفعل الأدوية الحسية، بل تصير الأدوية الحسية عندها بمنزلة أدوية الطرقية، عند الأطباء، وهذا جار على قانون الحكمة الإلهية ليس خارجا عنها، ولكن الأسباب متنوعة فإن القلب متى اتصل برب العالمين، وخالق الداء والدواء، ومدبر الطبيعة ومصرفها على ما يشاء كانت له أدوية أخرى غير الأدوية التي يعانيها القلب البعيد منه المعرض عنه، وقد علم أن الأرواح متى قويت، وقويت النفس والطبيعة تعاونا على دفع الداء وقهره، فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه، وفرحت بقربها من بارئها، وأنسها به، وحبها له، وتنعمها بذكره، وانصراف قواها كلها إليه، وجمعها عليه، واستعانتها به، وتوكلها عليه، أن يكون ذلك لها من أكبر الأدوية، وأن توجب لها هذه القوة دفع الألم بالكلية، ولا ينكر هذا إلا أجهل الناس، وأغلظهم حجابا، وأكثفهم نفسا، وأبعدهم عن اللّه وعن حقيقة الإنسانية، وسنذكر إن شاء اللّه السبب الذي به أزالت قراءة الفاتحة داء اللدغة عن اللديغ التي رقي بها، فقام حتى كأن ما به قلبة.. إلى آخر كلامه) زاد المعاد.

إن ما يؤمن به الإنسان ومعتقده هو ما يغير أعماله ثم أخلاقه وسجاياه ثم جسده وطبيعته وشكله كما ذكرنا سابقاً.

وهذا الأمر أصبح ظاهراً رآه الغربيون في أبحاثهم، انظر لبروس لبتون Bruce Lipton **وأبحاثه في علم** Epigenetics **وانظر لكتابه** Biology of belief **يقول في أبحاثه أن معتقدات الإنسان وما يؤمن به هو ما يتحكم في الجينات الوراثية، فقد كانوا يظنون أن الجينات هي ما يتحكم في شكل الإنسان ووظائف جسده، فوجدوا أن ما يؤمن به الإنسان من معتقدات هو ما يتحكم بالجينات وبالتالي فوظائف جسد الإنسان وشكله إنما هي نتاج ما يؤمن به من معتقدات.**

فكما أن وظائف الجسد وشكله يتحكم فيه ما يعتقده ويؤمن به الإنسان من معلومات فالخلل الذي يطرأ على الجسد إذا مرض الإنسان فإما أن يكون بسبب اعتقاد فاسد آمن به الإنسان أو قد يكون بسبب آخر كالسموم و الإصابات و الحسد والسحر، فإذا عرفت أن الخلل في المعتقد من أعظم أسباب المرض عرفت لماذا قال اللَّه عن القرآن الذي هو كلامه ووحيه أنه (شفاء ورحمة للمؤمنين) و قال أيضا (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء)، ولكن لا ينتفع به إلا المؤمن الذي يصدق به ويتفكر فيه يقول ابن القيم (واعتبرْ هذا بأعظم الأدوية والأشفية، وأنفعِها للقلوب والأبدان، والمعاش والمعاد، والدنيا والآخرة، وهو القرآن الذى هو شفاءٌ مِن كل داء، كيف لا ينفع القلوب التى لا تعتقد فيه الشفاء والنفع، بل لا يزيدها إلا مرضاً إلى مرضها، وليس لِشفاء القلوب دواءٌ قَطُّ أنفعَ مِن القرآن، فإنه شفاؤها التام الكامل الذى لا يُغادر فيها سقماً إلا أبرأه، ويحفظ عليها صحتها المطلقة، ويحميها الحمية التامة من كل مؤذٍ ومُضرٍ، ومع هذا فإعراضُ أكثرِ القلوب عنه، وعدم اعتقادها الجازم الذى لا ريب فيه أنه كذلك، وعدمُ استعماله، والعدول عنه إلى الأدوية التي ركبها بنو جنسها حال بينها وبين الشفاء به، وغلبت العوائدُ، واشتد الإعراض، وتمكنت العللُ والأدواءُ المزمنة من القلوب، وتربَّى المرضى والأطباء على علاج بنى جنسهم وما وضعه لهم شيوخُهم، ومَنْ يُعظمونه ويُحسنون به ظنونهم، فعظم المصابُ، واستحكم الداءُ، وتركَّبت أمراضٌ وعللٌ أعيَا عليهم عِلاجُها، وكلمَّا عالجوها بتلك العلاجات الحادثة تفاقَمَ أمرها، وقويت) زاد المعاد.

وفوق هذا فإن الإنسان إذا آمن بنفع دواء من الأدوية ولو كان باطلاً فإنه ربما يدفع به المرض أو يخففه، وهذا يحصل للإنسان إذا ضعف توكله على اللّه وتعلق بالأسباب الدنيوية، ولهذا فإن أصحاب الطب الغربي يستعملون أدوية وهمية تسمى placebo يعطونها المرضى أحياناً لأن المريض متعلق بالدواء.

كما يستعملونها في أبحاثهم التي يختبرون بها أدويتهم الحقيقية فيجدون في نتائج هذه الأبحاث أثراً للدواء الحقيقي وأثراً للدواء الوهمي أيضاً.

فلو آمن المسلمون ووثقوا بوحي الحكيم الرحيم وصدقوه واتبعوه لأغناهم اللّه به عما سواه يقول ابن القيم (وكيف تنكر أن تكون شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة مشتملة على صلاح الأبدان، كاشتمالها على صلاح القلوب، وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها، ودفع آفاتها بطرق كلية قد وكل تفصيلها إلى العقل الصحيح، والفطرة السليمة بطريق القياس والتنبيه والإيماء، كما هو في كثير من مسائل فروع الفقه، ولا تكن ممن إذا جهل شيئا عاداه.

ولو رزق العبد تضلعا من كتاب اللّه وسنة رسوله، وفهما تاما في النصوص ولوازمها لاستغنى بذلك عن كل كلام سواه، و لاستنبط جميع العلوم الصحيحة منه.

فمدار العلوم كلها على معرفة اللّه وأمره وخلقه، وذلك مسلم إلى الرسل صلوات اللّه عليهم وسلامه، فهم أعلم الخلق باللّه وأمره وخلقه وحكمته في خلقه وأمره.) زاد المعاد

علم تطوير الذات أو تنمية الذات

هذا علم مستقى من علوم غربية باطلة كالبرمجة اللغوية العصبية وعلم النفس الغربي وبعض الأديان الشرقية الباطلة كالبوذية (وكاتب هذه الورقات قضى سنتين تقريباً يقرأ في كتب التنمية وتطوير الذات قبل أن يهديه اللّه للحق بفضله ومنته

سبحانه)، فهذه العلوم تدعي أنها تغير عادات الإنسان فتجعله فعالاً ذو عزيمة كبيرة والحق أن أثرها ضعيف جدا، إن لم يكن معدوماً وفوق هذا تحتوي على اعتقادات شركية إلحادية والعياذ بالله.

إن تزكية النفس من أعظم مقاصد الوحي، والتزكية هي تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها. انظر المدارج ٢/ ٢٩٧

يقول تعالى (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) يقول ابن كثير: يزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية .

إن هذا الدين أتي ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن ذلك أنه يزرع في الإنسان كل خلق عظيم يجعله قويا في كل نواحي حياته.

إن الله سبحانه وتعالى حكيم فهو لا يخبر بخبر أو يأمر بأمر إلا وفيه سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وسعادة الأمة وعزها وشرفها في الدنيا والآخرة، وأنظر للجيل الأول كيف أن أحدهم كان أمة في رجل، وانظر لهم كيف أنهم فتحوا الدنيا وحكموا فارس والروم في وقت وجيز جدا.

ولكن نشكو إلى الله من قلت بصيرته في دينه وأقبل على هذه العلوم الفاسدة وعظمها وقدم أهلها، فهذا والله من غربة الدين، فكم من محروم لا يرى هذا الدين إلا تكاليف لا غاية لها ولا حكمة سوى التعبد يقول ابن القيم (فأوامر الرب تعالى رحمة وإحسان وشفاء ودواء وغذاء للقلوب، وزينة للظاهر والباطن، وحياة للقلب والبدن، وكم في ضمنه من مسرة وفرحة ولذة وبهجة ونعيم وقرة عين، فما يسميه هؤلاء تكاليف إنما هو قرة العيون وبهجة النفوس وحياة القلوب ونور العقول وتكميل للفطر وإحسان تام إلى النوع الإنساني أعظم من إحسانه إليه بالصحة والعافية والطعام والشراب واللباس، فنعمته على عباده بإرسال الرسل إليهم وإنزال كتبه عليهم وتعريفهم أمره ونهيه وما يحبه وما يبغضه أعظم النعم وأجلها وأعلاها وأفضلها، بل لا نسبة لرحمتهم بالشمس والقمر والغيث والنبات إلى رحمتهم بالعلم والإيمان

والشرائع والحلال والحرام، فكيف يقال أي حكمة في ذلك وإنما هو مجرد مشقة ونصب بغير فائدة، فواللَّه أن من زعم ذلك وظنه في أحكم الحاكمين لأضل من الأنعام، وأسوأ حالا من الحمير، ونعوذ باللَّه من الخذلان والجهل بالرحمن وأسمائه وصفاته، وهل قامت مصالح الوجود إلا بالأمر والنهي وإرسال الرسل وإنزال الكتب؟) شفاء العليل.

إعداد القوة

يقول الشيخ عبدالكريم بن حميد: { يقال في هذه العلوم الحديثة : إعداد القوة ويُستدل على ذلك بقوله تعالى : { وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة } ، والذي لا شك فيه أن الأصل الأصيل الذي يُبدأ به ويُصان ويحافظ عليه هو قوة الايمان التي مع فقدها لا يغني شيء ومع ضعفها تحفّ الأخطار وليس المراد بقاء المسلم أعزلاً ولا أيضاً اعتماده على مالا يصلح وليس فيه نكاية بالعدو بدعوى التمسك بالقديم، فكل هذا غير مراد، وإنما المراد النظر في الأساليب المتخذة في هذا الزمان وأنه من أعظم أسباب التخلف والانقطاع عن اللَّه الانشغال بهذه الطريقة الشمولية في قشور ملهية وشاغلة بل ومؤذية بل ومذهبة للإيمان أو أحسن أحوالها أنها مضعفة له .

هل يلزم كل فرد أن يعرف عناصر المواد وتركيبها وتغيراتها واستحالاتها وأصولها وفروعها وكيف نشأت وتكوّنت وبلدانها وكمياتها وكيفياتها إلى غير ذلك مما هو مفسدة ومشغلة، ألا يكفي معرفة اسم الأداة وكيفية تصريفها لغرضها الذي هُيِّئت له بشرط أن يكون المراد أن تكون كلمة اللَّه هي العليا ؟ فتفرغ القلوب لما خلقت له وتكون أواني نظيفة لتستقبل ما هيئت وأُعدت له . بيان العلم الأصيل ٦٤

ذكر ابن القيم رحمه اللَّه: وفاء رسالته – صلى اللَّه عليه وسلم – في كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم وأنه لا حاجة إلى أحد سواه البتة وإنما حاجتنا إلى

من يبلغنا عنه ما جاء به فمن لم يستقر هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الايمان بالرسول، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلى سواه، وإنما يحتاج إلى غيره من قلّ نصيبه من معرفته وفهمه، فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته وإلا فقد توفي رسول اللَّه – صلى اللَّه عليه وسلم – وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علماً.

وكذلك عرّفهم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة إلى كلام أحد من الناس البتة، وكذلك عرّفهم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق الظفر به مالو علموه وفعلوه لم يقم لهم عدو أبداً .

وأرشدهم في معاشهم إلى ما لو فعلوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة، وبالجملة فقد جاءهم رسول اللَّه – صلى اللَّه عليه وسلم – بخير الدنيا والآخرة بحذافيره ولم يجعل اللَّه بهم حاجة إلى أحد سواه، ولهذا ختم اللَّه به ديوان النبوة فلم يجعل بعده رسولاً لاستغناء الأمة به عمن سواه ، إلى آخره. بدائع الفوائد ١٥٥/ ٣

يقول الشيخ عبدالكريم بن حميد : و يا له من كلام نفيس ما أحسنه وأكمله، لكن قد يقول بعض الناس أو أكثر الناس اليوم في قول ابن القيم:(وكذلك عرّفهم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق الظفر به مالو عملوه وفعلوه لم يقم لهم عدو أبداً)

قد يقال : هذا يُشكل في زماننا وليس بالبيّن لتغير الأحوال لا سيما في هذا المجال فالجواب سهل وللَّه الحمد، فأولاً : لو استمرت أحوال الأمة على ما تركهم عليه نبيهم – صلى اللَّه عليه وسلم – لما قام لأعدائهم قائمة بمعنى أن تكون الأعداء على ماهي عليه اليوم من حالٍ بهرت عقول ضعاف الايمان لأن هذا إنما جاء عقوبة التغيير والتبديل والانحراف عن سواء السبيل كما في الأثر : (إذا عصاني من يعرفني سلطت

عليه من لا يعرفني) ، وقد قال تعالى : {إن اللَّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} .

ثانياً : لو عادت الأمة اليوم إلى طريق نبيهم – صلى اللَّه عليه وسلم – لرأوا من تغيير اللَّه لهم الأحوال ما لا يوصف فالأمر كله له سبحانه هو المدبر لأمر الخلائق وبهذا الجواب يَنْحلّ الإشكال لكن إنما ينتفع بهذا أهل الايمان الذين يؤمنون بقوله تعالى : { الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا اللَّه ونعم الوكيل } يعني يؤمنون بذلك على الحقيقة ومثل قوله تعالى : { يا أيها النبي حسبك اللَّه ومن اتبعك من المؤمنين } أي : هو كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين وهذا مستمر إلى يوم القيامة لكن الشأن بالإيمان الموجب لمعية اللَّه ونصره وكفايته، فالمصيبة أننا نهرب عن الدين ونلّوح له ونناديه : اتبعنا وانصرنا . {من كتاب بيان العلم الأصيل}.

ويقول أيضا: (وهنا مسألة يحتج بها كثيرون يقولون: المسلمون يحتاجون إلى القوة والسلاح واللَّه يقول: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ) الآية .. وهذه ليست حجة لمن يتلقى علوم الأعداء المضلة ونظرياتهم الباطلة ويفني عمره في ذلك ليصل بعد الجهد الجهيد إلى معرفة شيء من مخترعاتهم التي هي خوارق وقوة المسلمين ليست بالسلاح ولكنها بطاعة من تكفّل لهم بالنصر ما استقاموا على طاعته قال تعالى: (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ) وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) وقال تعالى: (كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ) وغير ذلك كثير طيب من كلام ربنا ووصايا نبينا يتضح منها أن المطلوب منا الايمان الصادق أولاً، وأدنى شيء من السلاح يكفي ولا يعتمد عليه (أقول: لا يقصد الشيخ التفريط في إعداد العدة ولكن يقصد أن المتوفر من السلاح يكفي) قال تعالى: (إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ) وهذا دائماً لكن الرب سبحانه إنما ينصر الحق، فمن قام بالحق ولو كان أضعف الناس فإنه لا يغلبه أحد ولا تروعه ولا تخيفه خوارق أعداء اللَّه بل هم في اعتقاده أحقر من الذباب، لأن الرب سبحانه هو الذي يدبر أمر الخلائق وإنما يسلطهم على من شاء بسبب الذنوب لا

بسبب قلة السلاح وهذا معنى قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: إن خوفي من ذنوب الجيش أعظم من خوفي من عدوهم، كلاماً نحو هذا وكما ورد (إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني) فتأمل كلمة سلّطت فالأمر بيده سبحانه هم لا يطْرفون طرفة ولا يتحركون حركة إلا بتحريكه لهم وتدبيره ومحال أن يسلطهم على أتباع نبيه على الحقيقة ولَوْ وُجِدُوا، وحسب المسلم في هذا سيرة نبيه وصحابته وأحوالهم لأن الطرق كلها مسدودة إلا طريقة صلى اللَّه عليه وسلم.

والمسألة ركبت على أساس قياس فاسد له ثلاث شعب، الأولى: أن ما توصل إليه الغربيون يسمى علم وحضارة ونهضة ورقي وما أشبه هذه الأسماء التي هي من زخرف القول ويُمدحون من أجله ، والصحيح أن الغرب صريع كبوته أسير غفلته ولم تزدهم هذه العلوم والخوارق إلا ضلالاً وبواراً وقد ذكرنا طرفاً من كلام بعض عقلائهم فيما مضى وفي غير هذه النبذة مما يصفون به حالهم وعلومهم ومخترعاتهم مما فيه كفاية لمن يتطلب الحق.

الثانية: نسبة أصول علومهم للمسلمين فيجعل ذلك من مفاخر الإسلام وحضارة أهله وازدهارهم وهو باطل كما بيّناه لأنه من نكسات من يُنسبون إلى الإسلام، ليسوا ممن يمثله حقيقة مثل الصحابة والأئمة والعلماء بعدهم الذين لم ينحرفوا عن علم نبيهم صلى اللَّه عليه وسلم.

الثالثة: وهي كالنتيجة للشبهتين السابقتين وهي التي اغتر بها من اغتر وخدع بها من خدع كما يقال: (تمخض الجمل فولد فأراً) وهي أن الإسلام متخلف وأهله في انحطاط وقد فاتهم ركب الحضارة والتقدم والرقي وأن الغربيين سبقوا ونهضوا وتطوروا ومن هنا تسرّب الذل النفسي إلى النفوس المخدوعة بهذه الشبهات الباطلة فأنتج هذا كله وأثمر أن يُوَجّه أبناء المسلمين هذا التوجيه ويُصاح بهم هذا الصياح الذي يدعوا إلى غير الفلاح سابقوا ونافسوا إلى الحضارة والمدنية والتطور والرقي.

قال ابن القيم رحمه اللَّه: ولما توفي موسى رفع التعطيل رأسه بينهم (يعني بني إسرائيل) فأقبلوا على علوم المعطلة وقَدّموها على نصوص التوراة فسلط اللَّه

عليهم من أزال مُلْكهم وشردهم من أوطانهم وسبى ذراريهم كما هي عادته سبحانه وسنته في عباده إذا أعرضوا عن الوحي وتعّوضوا عنه بكلام الملاحدة والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم كما سَلّط النصارى على بلاد المغرب لما ظهر فيها الفلسفة والمنطق واشتغلوا بها فاستولت النصارى على أكثر بلادهم وأصاروهم رعية لهم.
وكذلك لما ظهر ذلك ببلاد المشرق سلط اللّه عليهم عساكر التتار فأبادوا أكثر البلاد الشرقية واستولوا عليها، وكذلك في أواخر المائة الثالثة وأول الرابعة لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد سلط اللّه عليهم القرامطة الباطنية فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات واستولوا على الحاج واستعرضوهم قتلاً وأسراً واشتدت شوكتهم.
ثم قال رحمه اللّه: والمقصود أن هذا الداء لما دخل في بني إسرائيل كان سبب دمارهم وزوال ملكهم. انتهى.
هذا الداء الذي سبب دمار بني إسرائيل وزوال مملكتهم أهل زماننا يُسمونه علم وتطور ورقي وحضارة، فتأمل اليوم كيف أقبلت الأمة على علوم المعطلة وفيه مصداق قوله صلى اللّه عليه وسلم: (لتتبعن سنن من كان قبلكم) البخاري .
وتأمل قول ابن القيم: كما هي عادة اللّه سبحانه وسنته في عباده إذا أعرضوا عن الوحي وتعوّضوا عنه بكلام الملاحدة، واليوم يُفسر القرآن على مقتضى علوم الملاحدة فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون واللّه الموفق) {الفرقان في بيان إعجاز القرآن}.
أقول : ومن يتفكر في القرآن يجد أن اللّه أمرنا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلها سبباً لنصره وتمكينه للمؤمنين قال تعالى (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).
إن المتأمل لآيات وأحاديث الجهاد يجد أن النصر يأتي بقدرة اللّه إذا قام المؤمنون بأمر اللّه، فاللّه يمدهم بالملائكة ويقذف في قلوب أعدائهم الرعب ويعذبهم بأيدي المؤمنين، فتعذيب الكافرين بالجهاد هو الاسلوب القدري البديل للعذاب بالإهلاك منذ

نزول التوراة حتى قيام الساعة، ولم يكلف اللَّه المؤمنين إلا بإعداد ما استطاعوا فقط، فهو سبحانه مسبب الأسباب وبيده أثر هذه الأسباب، يقول الشيخ ناصر الفهد في كتابه "حقيقة الحضارة الإسلامية": (فعزة المسلمين وقوتهم بإيمانهم، فإنهم ينصرون به، وما السلاح إلا وسيلة فقط، لذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى قال: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} ، فإنه سبحانه أمر بإعداد المستطاع فقط، ولم يأمر المسلمين بأن يعدوا من السلاح مثل ما أعده الكافرون أو أكثر من ذلك، فلو لم يستطع المسلمون إلا على الحجارة فأعدوها مع إيمانهم الصادق؛ لنصرهم اللَّه، ولعل هذا الأمر يتضح بإمداد اللَّه سبحانه للمسلمين بالملائكة في بدر وحنين، وكما مشى سعد بن أبي وقاص رضي اللَّه عنه وجنده على الماء وكذلك العلاء بن الحضرمي، ولعل هذا الأمر يتضح بصورة أكثر في مساعدة الحجر والشجر للمسلمين في قتالهم مع اليهود قبل قيام الساعة.

لذلك فاعلم أن ذل المسلمين اليوم ليس لجهلهم بهذه العلوم، فإنهم كانوا في القرون المفضلة – وقت الحضارة الحقيقية – أجهل بها، ولكن هذه الذلة ضربها اللَّه عليهم لما أعرضوا عن دينه، إن تسليط الكافرين اليوم على المسلمين إنما هو فتنة لهم وعقوبة.

فإن السبيل للرجوع إلى حضارة الإسلام الأولى؛ إنما تكون بإتباع السلف في العناية بالأعمال الصالحة والعلوم الشرعية والقيام بالجهاد والزهد في الدنيا.

وقد أخطأ كلَّ الخطأ؛ من رأى أن السبيل إنما يكون بأخذ صناعات الكافرين وتعلمها وتعليمها ونشرها بين المسلمين، لأنه لا بد من معرفة الداء قبل أن يوصف الدواء، وداء المسلمين اليوم هو البعد عن دين اللَّه وعن منهج السلف، فلو أنهم التزموا دين اللَّه على منهج السلف لكان هذا الدواء بإذن اللَّه تعالى) .

وما ذكرناه لا ينافي أن يستعمل المسلم ما يصنعه الكفار من أسلحة وآلات في حربه ضدهم، سواء حصل عليها بتجارة أو غنمها منهم، فهناك فرق بين هذا وبين أن يشغل قلبه في علومهم ، كما أنه لا ينافي أن يستعمل المسلم نتاج بعض تجاربهم

في أمور الدنيا – شريطة ألا تتعارض هذه النتائج مع أمر من أمور ديننا – فالرسول صلى اللّه عليه وسلم حفر الخندق كما يفعل الفرس بعد أن أشار عليه بذلك سلمان رضي اللّه عنه، وهم بالنهي عن الغيلة –وطء المرضع– فلما عرف أن فارس والروم يصنعون ذلك ولا يضر أولادهم أذن بذلك .

لماذا طريقة التعليم الحديث غير نافعة؟

لسببين: أولاً: طلب العلم وتعليمه لغير اللّه: فإن الطالب يدخل نظام التعليم ويطلب العلم للشهادة أو الوظيفة، وهذا من أعظم المنكرات القادحة في التوحيد لأن طلب العلم عبادة، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: العمل لأجل الدنيا كالرياء في بطلان العمل إن استرسل معه كمن يطلب العلم لتحصيل وظيفة التعليم كحال أهل المدارس وأئمة المساجد والمجاهدين ونحوهم ممن يقصد بعمله أمر الدنيا. {قرة عيون الموحدين}، وقال الإمام أحمد رحمه اللّه: لا تكتبوا العلم عمن يأخذ عليه عرضاً من الدنيا، وقال: لا يُطلب العلم ممن يأخذ عليه أجراً.

ثانياً: أن طريقة التعليم نفسها من أكبر أسباب تحديد الإبداع في العلوم التي تدرسها هذه المدارس و الجامعات سواء في التخصصات الدينية أو الطبيعية:

إن طريقة التعليم هذه تطلب من المتعلم حفظ وفهم الكثير من المعلومات التي لا يشعر بحاجة لها وبالتالي لا يقبل عليها ولا يرغب فيها ، إن المعلومة التي لا يتفكر فيها ولا يتساءل عنها الإنسان ليس لها قيمة عنده، فعندما تُعطي الإنسان معلومة فإنه إن كان مريداً للعلم فإنه سيأخذ هذه المعلومة وسيتفكر فيها، وأما إن كان متبعاً لهواه فسيعرض عنها أو يكذبها، هذه طبيعة العقل البشري.

أما بطريقة التعليم الحديثة فإن الطالب يحفظ ويفهم المنهاج المفروض عليه ولا يلزم من ذلك أن يكون الطالب راغباً في هذا العلم ، باحثاً عنه ، عنده الكثير من

التساؤلات حوله من قبل بل يتم إلزامه بحفظه وفهمه على كل حال فيتعلمه من أجل اجتياز الامتحان وهذه الطريقة تنتج شخص لديه الكثير من المعلومات ويحفظ الكثير من المتون ولكن لا يشعر بقيمتها ولا يعرف كيف يستعملها ولا يستطيع النظر للواقع من خلالها.

المبدعون في العلوم الدنيوية

(وأنا هنا لا أقول هذا الكلام إعجاباً بهذه العلوم ولا تشجيعاً للخوض فيها ولكن لأبين أن للعقل طريقة واحدة للتعامل مع العلوم وأن طرق التعليم الحادثة تفسد موهبة التفكير عند الإنسان) ..

إن المبدعين في كل علم من العلوم الدنيوية إنما وصلوا لما وصلوا إليه بالتفكر والبحث و التجربة والخطأ، فالتفكر يثير التساؤلات التي تدفعه للبحث عن الإجابة لهذه التساؤلات، فإذا وصل إلى ما انتهى إليه علم البشر بدأ في التجربة فإذا أخطأ أعاد التجربة وهكذا حتى يجد الطريق، وليس بطريقة المدارس والجامعات التي لا تخرج إلا جيلا لا يفكر ولا يبدع، انظر للهاكرز الذين يتعلمون بأنفسهم فأحدهم يبدأ بالبحث عن معلومة ثم يتفكر فيها و يختبرها ويجربها، ثم يبحث عن معلومة أخرى يبنيها على المعلومة السابقة لكي توصله لهدفه فيتفكر فيها ويختبرها ويجربها وهكذا، حتى يصل لهدفه، وفي خلال هذه الرحلة يكون هو قد ألم بكل معلومة في طريقة، فيعرف إمكانيات كل معلومة ويعرف لو حصل له عائق خلال هذا الطريق كيف يتجاوزه إلى هدفه، فيصبح البناء المعرفي في ذهنه مترابط جداً يسهل عليه الإبداع فيه، أما من يأخذ معلومات جاهزة ولا يقضي وقتاً للتفكر فيها واختبارها، فإنه لا يعرف امكانيات كل معلومة، بل لا يعرف إلا الطريق الذي رسمه له المنهاج الذي يدرسه، وانظر كذلك للمخترعين الغربيين أينشتاين وأديسون وغيرهم الكثير تجد أن

ما يجمعهم أنهم لم يدرسوا في المدارس التي تدمر موهبة التفكير التي وهبها اللّه للإنسان.

في أحد أشهر الكتب الغربية لكاتب اسمه دانيال بنك اسمه درايف (drive) ألفه بعد عدة دراسات نفسية حديثة للدوافع البشرية، يقول فيه : في أي عمل يحتاج إبداع و تفكير عميق يجب مراعاة ثلاثة أشياء:

١- أن كل إنسان عنده رغبة جامحة لتوجيه حياته الخاصة (أقول: هذا يعني أنه يجب الابتعاد عن التسلط عليه بفرض المكان والزمان وطريقة التعلم و العمل وغيرها.)

٢- أن كل إنسان عنده رغبة قوية للتطور في مجال يراه ذو معنى عظيم لديه.

٣- أن كل إنسان لديه رغبة لخدمة (معنى يراه أكبر منه) . انتهى . (أقول: فالمسلم يريد أن يخدم دينه ويعلي كلمة ربه ويرضيه.)

وأنا لا أكتب هذا الكلام لدانيال بنك إعجاباً به أو بكلامه ولكن لترى أخي أن الغرب هم أنفسهم قد تبين لهم فساد ما هم عليه من طرق تعليمية بل جميع أمور حياتهم فاسدة، ولكن ساقنا ذهولنا بما هم فيه من مظاهر حياتهم المادية فاتبعناهم حذو القذة بالقذة يقول الشيخ ابن تيمية في مخالفة أهل الكفر : {ولا يتصور أن يكون شيء من أمورهم كاملا قط ، فإذا المخالفة فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورنا حتى ما هم عليه من إتقان أمور دنياهم قد يكون مضرا بآخرتنا أو بما هو أهم منه من أمر دنيانا فالمخالفة فيها صلاح لنا ، وبالجملة فالكفر بمنزلة مرض القلب أو أشد ومتى كان القلب مريضا لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة وإنما الصلاح أن لا تشابه مريض القلب في شيء من أموره وإن خفي عليك مرض ذلك العضو لكن يكفيك أن فساد الأصل لا بد أن يؤثر في الفرع ومن انتبه لهذا قد يعلم بعض الحكمة التي أنزلها اللّه فإن من في قلبه مرض قد يرتاب في الأمر.

وحقيقة الأمر أن جميع أعمال الكافر وأموره لا بد فيها من خلل يمنعها أن تتم له منفعة بها ولو فرض صلاح شيء من أموره على التمام لاستحق بذلك ثواب الآخرة ولكن كل أموره إما فاسدة وإما ناقصة} { اقتضاء الصراط المستقيم }.

هذا الجزء يبين بعض الأمور حول التعليم والدعوة:

تعليم الوحي

إن حفظ ألفاظ القرآن والسنة دون فهم معانيها ثم التفكر فيها ليست هي الطريقة الصحيحة لتعلم الوحي، كما أن تعلم متون العقيدة والفقه منفصلةً عن القرآن والسنة - كما يحصل الآن- تجعل الإنسان بمعزل عن تصور الشريعة وارتباطها ببعضها وجمالها.

فقد كان الرسول صلى اللّه عليه وسلم يعلم أصحابه القرآن معاني وتلاوة ويعلمهم السنة يقول تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)
يقول الطبري {{يتلو عليهم آياته}، أي: يقرأ عليهم آي كتابه وتنزيله، {ويعلمهم الكتاب}، يعني: ويعلمهم كتاب اللّه الذي أنزله عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه، {والحكمة} ويعني بالحكمة: السُّنةَ التي سنها اللّه جل ثناؤه للمؤمنين على لسان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وبيانَه لهم }، انتهى.
فكانت السنة مبينة ومفسرة ومكملة للقرآن يقول تعالى (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) يقول ابن كثير: {وأنزلنا إليك الذكر} يعني: القرآن، {لتبين للناس ما نزل إليهم} من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل: {ولعلهم يتفكرون} أي: ينظرون لأنفسهم فيهتدون، فيفوزون بالنجاة في الدارين. انتهى.
قال ابن رجب : (فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها، والتقيد بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث) فضل علم السلف.

ومن خلال تعليم معاني القرآن والسنة يتوسع في شرح أمور العقيدة والفقه ثم يتفرع في علوم الآلة على حسب الموضوع الذي يتكلم فيه وعلى حسب مستوى وحاجة المتعلم، ففي الوحي خصائص تجعله مؤثراً في النفس البشرية، والقرآن خصوصاً يخاطب القلب بما فيه من وصف للّه ولآياته في الكون وبما فيه من المواعظ والعبر و بما فيه من سحر البيان وجمال التركيب.

بهذه الطريقة التي تبدأ بالوحي ثم تتفرع منه يصبح عند المتعلم نظرة شاملة له، وتصبح العلوم مترابطة في عقله لأنها كلها تفرعت منه عملياً ، فعلوم الشريعة كأجزاء مختلفة لجسد واحد، وهذه الطريقة ينتهجها بعض العلماء في هذا الزمن في شرح بعض الكتب مثل بلوغ المرام فتجده يشرح الحديث ثم يتكلم عنه من ناحية الصحة والضعف ثم يتكلم عن الأحاديث والآيات التي توضح معناه ثم يتكلم عما فيه من أحكام وهكذا، أما تقسيم العلوم وتدريسها بالطريقة الموجودة حالياً فإنها تجعل الطالب يتعامل مع كل علم مستقل عن الآخر، وهذا مما يفقده ويحرمه جمال الوحي لأنه لا يستطيع أن ينظر له إلا كأجزاء منفصلة عن بعضها وانظر لخريجي كليات الشريعة تجد في كثير منهم ضعفاً شديداً في فهم الوحي وضعفاً أشد في كيفية النظر للواقع من خلال هذه العلوم.

وعلوم الآلة تعلم من خلال تعليم الوحي وليس بمعزل عنه ، فلهذه الطريقة ميزتان:

الأولى : أنه يقبل على تعلم علم الآلة بحب لأنه إنما يريد أن يتعلمه حتى يتجلى له المعنى الموجود في الوحي الذي يحترق شوقا لتعلمه.

الثانية: أن هذه الطريقة تطبيقية بحيث أنه يتعلم شيئا من علم الآلة حتى يطبقه الآن فهو يتعلم مثلا كيف يميز بين الحديث الصحيح والضعيف من علم المصطلح حتى يعرف هل الحديث الذي بين يديه صحيح أو ضعيف أو يتعلم كيف يعرب كلمة في القرآن أشكلت عليه فيعود لعلم النحو ويقرأ فيه حتى يتعلم كيف يعربها وهكذا، فبهذه الطريقة يقوم المتعلم بتطبيق علم الآلة مباشرة، أما إذا تعلم علم الآلة بالطريقة التقليدية فلا يلزم من ذلك أن يستطيع تطبيقه فكم من متقن لعلم

النحو نظرياً ولكن لا يستطيع أن يكتب مقالاً صحيحاً لغوياً أما إذا تعلمه بهذه الطريقة المذكورة في هذه الورقات فإنه يتعلم معلومة لأنه يحتاجها ويريد تطبيقها حالاً فترسخ في ذهنه بإذن اللَّه.

كيف نبدأ تعليم الوحي؟

يبدأ المعلم أولا بما لا يسع المسلم جهله من علم العقيدة والفقه معتمدا في ذلك على الوحي بصفة أولية، فيبين معانيه للمتعلم بلغة سهلة ميسرة، ثم بعد ذلك يبدأ بتعليم القرآن معاني وتلاوة ، فيبين معانيه بما صح من كلام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ثم بكلام السلف، فقد أرسل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مصعباً إلى أهل المدينة ليعلمهم القرآن في أول إسلامهم (انظر فتح الباري رقم ١١٤٢ و ٦٠٨٣) ، وارسل معاذاً وأبا موسى إلى اليمن ليعلموا الناس القرآن (انظر مسند أحمد رقم ١٩٥٤٤) ، و كان من يقدم إلى المدينة من المسلمين الجدد يبدأ بتعليمهم القرآن (انظر مسند أحمد رقم ٢٢٧٦٦).

والأفضل أن يبدأ المعلم في تعليمه للقرآن بأوائل ما نزل منه كالقرآن المكي من المفصل (المفصل هو قصار السور من سورة ق إلى سورة الناس) وسورة الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء فهذه أيضاً من أوائل ما نزل كما ذكر ابن مسعود في البخاري، فمواضيع هذه السور تدور حول التعريف باللَّه واليوم الآخر فتزرع الايمان باللَّه وتعظيمه وخشيته ومحبته في القلوب، فعن عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت :" إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس للإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع شرب الخمر ، ولو نزل أول شيء : لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا ، وإنه أنزلت { وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ } ، بمكة وإني جارية ألعب ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده" صحيح البخاري ، فترتيب نزول آيات القرآن لم يكن عبثاً – تعالى اللَّه عن ذلك – وإنما كان لحكمة

فأوائل ما نزل من القرآن يهيئ المتعلم لما نزل في المدينة من آيات الأحكام، وذلك لأن الإنسان يحتاج أن يعرف اللَّه ويعظمه قبل أن يعرف أمره.

في البخاري أن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُفَصَّلَ هُوَ الْمُحْكَمُ قَالَ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ.

انظر أخي كيف أن ابن عباس لم يتعلم إلا المفصل منذ تمييزه إلى أن صار عمره عشر سنين، مع أنه من أشد الناس ذكاءً و أقواهم حفظاً، فمثله لا يصعب عليه أن يحفظ القرآن كله في سنة، فكم من غلامٍ حفظ القرآن قبل السابعة من عمره، ولكن الأمر كما قال جندب : (كنا مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم غلماناً حزاورة فنتعلم الايمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن بعد فازددنا ايماناً) فمعاني القرآن هي ما يزيد الايمان يقول ابن تيمية (بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه وذلك هو الذي يزيد الايمان كما قال جندب بن عبد اللَّه وعبد اللَّه بن عمر وغيرهما: تعلمنا الايمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا ايمانا وأنتم تتعلمون القرآن ثم تتعلمون الايمان، وإنما المقصود التنبيه على أن ذلك كله مما بلغه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى الناس، وبلغنا أصحابه عنه الايمان والقرآن حروفه ومعانيه وذلك مما أوحاه اللَّه إليه كما قال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا}) {الفتاوى} .

فمعاني أوائل ما نزل من القرآن هي الإيمان الذي كانوا يتعلمونه قبل القرآن، وهذه المعاني إنما هي أخبار وأوامر إذا صدقها المسلم وعمل بها زرعت الإيمان في قلبه، فالأخبار كانت تدور حول التعريف باللَّه وكتابه وآياته وسننه واليوم الآخر والنفس وعيوبها والشيطان ومكره، وأما الأوامر فأهمها: الأمر بعبادة اللَّه وحده وإقامة الصلاة بخشوعها والإنفاق في سبيل اللَّه، وآيات القرآن دائماً تربط بين هداية القرآن وإقامة الصلاة والإنفاق وتأمل بدايات البقرة والنمل ولقمان، فلا غنى للمسلم عن هذين العملين إذا أراد أن يتعلم القرآن وينتفع به.

ولا يزيد عدد الآيات عن عشر آيات للدرس الواحد فقد كان الصحابة إذا تعلموا من النبي صلى اللَّه عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل كما قال ابن مسعود، والحفظ ليس المقصود الأول من تعلم القرآن، ولكن المقصود معرفة معانيه حتى يتفكر فيها المتعلم ويتدبرها، فالعلم ثمرة التفكر والتدبر، والتفكر والتدبر عملية طويلة المدى فقد يقضي المسلم ليلة كاملة للتفكر في آية واحدة وهذه كانت عادة السلف (كما ذكر ابن القيم في مفتاح دار السعادة ١-١٨٧) ، ولهذا تعلم الصحابة الوحي على مدى ثلاث وعشرين سنة، فهذه الأمور نحتاج أن نضعها بالحسبان في طلب العلم حتى لا نتعجل الثمر قبل أوانه.

في موطأ مالك أن عبد اللَّه بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها.

فتأمل أخي ما الذي جعل ابن عمر يمكث كل هذه المدة في سورة البقرة فهذا الأثر يدل على أنه كان يقضي أياماً كثيرة في آيات قلية حتى يتفكر فيها ويتدبرها، وحتى تتصور الأمر أكثر فكأنه قضى شهراً كاملاً تقريباً في كل ثلاث آيات.

انظر أخي لتعامل الجيل الأول مع كتاب اللَّه وانظر لتعاملنا معه و نحن نعامله كأنه متن يُحفظ، وبعضهم يقرءون التفاسير من اجل فهم المعنى دون الوقوف على هذه المعاني وتدبرها والنظر للحياة من خلالها، ولو فعل ذلك ابن عمر لكفاه شهر في سورة البقرة ولكن الأمر أعمق وأبعد مما نتصور .

ثم تجد الطالب يود الانتقال إلى كتب الفقه بأسرع وقت لأنه يظن أن العلم محصور فيها ، فمقياس العلم عند البعض هو أن يفتي الناس في أمور الفقه، بل إنك تجد أن علم الحلال والحرام هو ما يتبادر لأذهان الناس حينما تتكلم عن العلم يقول ابن تيمية (وأما العلم فيراد به في الأصل نوعان: أحدهما: العلم باللَّه ؛ وبما هو متصف به من نعوت الجلال والإكرام وما دلت عليه أسماؤه الحسنى،

وهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية اللّه لا محالة ، فالعالم باللّه الذي يخشى اللّه ، والعالم بأمر اللّه الذي يعرف الحلال والحرام، فالعلماء ثلاثة: عالم باللّه ليس عالما بأمر اللّه، وعالم بأمر اللّه ليس عالما باللّه، وعالم باللّه وبأمر اللّه.) {الفتاوى}، ويقول ابن رجب (والمقصود بالعلم باللّه هو العلم الذي يحصل في القلب بعد التفكر في آيات اللّه المسموعة المتلوة وآياته المشاهدة المرئية ، مما يوجب خشية اللّه والخشوع له ومحبته.) {مجموع رسائله}، ويقول ابن القيم (والمقصود ان العلم باللّه اصل كل علم، وهو اصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به سعادة العبد والجهل به اصل شقاوته، يزيده ايضاحا انه لا شيء اطيب للعبد ولا الذ ولا اهنأ ولا انعم لقلبه وعيشه من محبة فاطره وباريه ودوام ذكره والسعي في مرضاته، وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه، وله خلق الخلق ولأجله نزل الوحي وارسلت الرسل وقامت السموات والارض ووجدت الجنة والنار ولأجله شرعت الشرائع) {مفتاح دار السعادة}.

الدعوة

هل يكفي في الدعوة مجرد تعليم الناس المعلومات الموجودة في الكتب التي تتكلم عن التوحيد؟ هل كان الرسول يدعو الناس بهذه المعلومات مجردة؟ ..

لو أن هناك رجل لا يعرف عن ربه شيئاً قابلته ودعوته إلى أن يوحد اللّه في عبادته، ثم ذهبت إلى رجل آخر حالته كحالة الأول ولكنك بدأت بالكلام عن اللّه واليوم الآخر ثم بينت له التوحيد، فمن منهما أدعى لأن يستجيب؟ ..

كيف الطريق إذا..؟ وكيف كان يدعو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الناس..؟

كان يدعوهم بالقرآن ويعلمهم معانيه لأن القرآن يعرفهم باللّه فتخضع لعظمته القلوب وتحبه وتخشاه و يدعوهم لعبادته وحده فتنقاد وتذعن..

إن تعظيم اللَّه ومحبته هو أساس التوحيد فمتى عرف الإنسان ربه فأحبه وعظمه فإنه ينفر من كل عمل فيه شرك قبل أن يعرف أنه شركاً، لأن ما في قلبه من تعظيم اللَّه يجعله ينفر من كل عمل فيه تنقص لقدر اللَّه تعالى أو فيه رفع لمخلوق فوق قدره، يقول ابن القيم (والشرك أنواع كثيرة، لا يحصيها إلا اللَّه) {المدارج} ، فلن نستطيع إحصائها، ولكنها كلها تنشأ من جهل الإنسان بربه.

ولو سألت أحد الصحابة عن شروط لا إله إلا اللَّه أو عن نواقض الإسلام لما أجابك، برغم أنهم أعظم من حقق شروط لا إله إلا اللَّه وأبعد الناس عن نواقض الإسلام لأنهم عرفوا اللَّه من القرآن.

يقول الطبري في تفسيره لآية (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) أي ادْعُ (إلى سَبِيلِ رَبِّكَ) وهو الإسلام (بِالْحِكْمَةِ) يقول بوحي اللَّه الذي يوحيه إليك وكتابه الذي ينزله عليك (وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) يقول: وبالعبر الجميلة التي جعلها اللَّه حجة عليهم في كتابه. انتهى.

إن الفطرة السليمة هي الاستقامة على دين الإسلام (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) و الضلال عن هذه الفطرة وعدم الاستجابة للدعوة إنما يحصل للإنسان بسبب شهوة أفسدت نيته و إرادته أو شبهة أفسدت فهمه وإدراكه، ولذلك تعليم العقيدة مجردةً لا يكفي لأن القرآن يدعو للعقيدة الصحيحة ويشفي ما في قلب المدعو من أمراض الشبهات والشهوات، أما تعليم كتب العقيدة لوحدها فلا تشفي أمراض القلب، فقد يفهم المتعلم العقيدة ومع هذا لا ينقاد لما تدل عليه لأن قلبه لا زال مريضاً .

كيف ندعو الناس للتوحيد إذا ؟.. بأن نبين لهم معاني القرآن وندعوهم به .. ونعلمهم تفاصيل التوحيد من خلال تعليمنا لهم معاني القرآن.

فللقرآن طرق للتأثير في القلوب منها :

ذكر صفات اللَّه و أسماءه وآياته الكونية وسننه .

ومنها الترغيب والترهيب مثل قوله تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)، (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا) و وصف يوم القيامة وموقف الحساب و الجنة وأهلها والنار وأهلها.

ومنها القصة مثل قصة موسى و أصحاب الكهف و أصحاب الجنة وغيرها.

ومنها ضرب الأمثال كقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً)، (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ)

ومنها السؤال كقوله تعالى (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ)

ومنها جمال نظمه وتركيبه البلاغي..

وحينما تتفكر في معاني الفاتحة فإنك ستعرف ماهي الأمور التي يجب على الداعية أن يتكلم عنها حتى يؤثر في القلوب فسورة الفاتحة جمعت معاني القرآن التي لا غنى للإنسان عنها في مسيره إلى اللَّه.

فحمد اللَّه والثناء عليه بصفاته (الحمد للَّه رب العالمين، الرحمن الرحيم): تبين أنه يجب على الداعية أن يبدأ دعوته بالتذكير بنعم اللَّه وبالكلام عن آيات اللَّه وسننه في الكون وفي الأمم مما يستوجب حمده والثناء عليه، فتحبه القلوب وتعظمه.

والإنذار باليوم الآخر (مالك يوم الدين): وهو من أعظم الأمور التي يجب على الداعية أن يبينها للناس وهذا أول ما أمر اللَّه به رسوله (قم فأنذر)، فالإنذار والتخويف يميت الهوى الذي يصد النفوس عن الحق، فتخشاه القلوب وتهابه.

ثم وصف الطريق إلى اللَّه (إياك نعبد وإياك نستعين): فيبين أن المسير إلى اللَّه يكون بعبادته وحده وبالاستعانة به على ذلك، فالعبادة هي الغاية وصدق الاستعانة به هي الوسيلة.

وتبيان حاجة الإنسان إلى الهداية: وأنه في كل لحظة من حياته يحتاج أن يجعل اللَّه في قلبه من العلوم والإرادات ما يهديه به إلى أحب الأعمال إليه ولهذا فحاجة الإنسان إلى سؤال اللَّه الهداية متجددة.

ثم التحذير من عوائق هذا الطريق وهي اتباع الهوى الذي أضل اليهود والجهل الذي أضل النصارى.

فالقرآن أوحاه العليم الحكيم الذي يعلم ما يؤثر في أنفسنا فمعاني القرآن هي المفتاح لقلوب الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم، ففي البخاري: أتى الجبير بن مطعم المدينة مع أسارى بدر فسمع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقرأ في صلاة المغرب بسورة الطور، فلما قرأ: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} قال جبير: «كاد قلبي أن يطير»، وفي رواية «وذلك أول ما وقر من الايمان في قلبي» ويقول تعالى لنبيه (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ) فلا شيء أبلغ في النفوس من كلام اللَّه ، ولهذا فالداعية الموفق هو الذي يستطيع إيصال معاني القرآن للناس بلسانهم – أي بلغتهم وبما يفهمون من الكلام – (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ويقول تعالى (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) فهذه كانت مهمة أعظم داعية صلى اللَّه عليه وسلم.

ومن أعظم ما يعين الداعية أو المعلم على تعلم معاني القرآن و التفكر فيها وتدبرها هو مدارسته، ففي البخاري عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما، قال: كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم «أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول اللَّه حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة» ، وفي صحيح مسلم : عن أنس بن مالك، قال: (جاء ناس إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار، يقال لهم: القراء، فيهم خالي حرام، يقرءون القرآن، ويتدارسون بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء) و

يقول صلى اللَّه عليه وسلم: (وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه، يتلون كتاب اللَّه، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده) مسلم، ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه» رواه البخاري، يقول ابن حجر: (اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم أي اجتمعت ، وقوله فإذا اختلفتم أي في فهم معانيه، فقوموا عنه أي تفرقوا لئلا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر).

كيف يصبح الإنسان خير داعية ومعلم للقرآن؟

١- الحرص على تعلم القرآن ثم تعليمه للناس(احرص على ما ينفعك واستعن باللَّه)

٢- الدعاء والاستعانة باللَّه بقلب صادق وعلى مقدار صدق الاستعانة يكون مدد اللَّه لك قال ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في {إياك نعبد وإياك نستعين}. المدارج (١٠٠/ ١) .

٣- الصلاة الخاشعة والإكثار من النوافل: فقد أمر اللَّه رسوله صلى اللَّه عليه وسلم بقيام الليل في سورة المزمل في بداية الدعوة.

ولا غنى للداعية أو المعلم عن مداومة ذكر اللَّه بقلب حاضر ومن ذلك تلاوة القرآن وكثرة الاستغفار فالذكر هو الزاد في هذا الطريق .

٤- معرفة معاني القرآن وأعظم ما يبين معاني القرآن هو القرآن ثم السنة ومن التفاسير الموثوقة مثل الطبري أو ابن كثير أو السعدي .

٥- التفكر في هذه المعاني وتدبرها، و قوة التفكر والتدبر تعتمد على كثرة ذكر اللَّه.

٦- ايصال ما فهمت للناس بكلام يفهمونه فالقصد هو أن يفهم المتعلم المعنى حتى يصبح اعتقاداً يتعامل مع أحداث الحياة من خلاله، وليس القصد أن يحفظ المعنى كما يحفظ لفظ الآية.

أسئلة حول ما سبق

-لماذا نبدأ بالوحي وحده بلا مزاحم في التعليم؟

لأن المتعلم حينما يشغل قلبه بمعاني الوحي وحدها فإنها تربي فيه صفات تجعله صالحاً في نفسه من صدق وإخلاص ومراقبة للَّه عز وجل وقوة همة و عزيمة وإرادة وكرم وشجاعة وعفة وصبر، هذه الصفات تجعله أمة في رجل يحترق من أجل هذا الدين، فيتعلم وينجز في أيام ما يتعلمه وينجزه غيره في سنين، أما العلوم الأخرى فتشغل قلبه فتزاحم القرآن كما بيّنا فيضعف أو يزول تأثيره واللَّه المستعان .

-هل نحتاج لعلم الجبر أو أي علم آخر لمعرفة الشريعة كحساب الفرائض أو مواقيت الصلاة أو القبلة؟

يقول بن تيمية (وقد بينا أنه يمكن الجواب عن كل مسألة شرعية جاء بها الرسول صلى اللَّه عليه وسلم بدون حساب الجبر والمقابلة، وإن كان حساب الجبر والمقابلة صحيحا فنحن قد بينا أن شريعة الإسلام ومعرفتها ليست موقوفة على شيء يتعلم من غير المسلمين أصلا وإن كان طريقا صحيحا، بل طرق الجبر والمقابلة فيها تطويل، يغني اللَّه عنه بغيره كما ذكرنا في المنطق، وهكذا كل ما بعث به النبي صلى اللَّه عليه وسلم مثل العلم بجهة القبلة والعلم بمواقيت الصلاة والعلم بطلوع الفجر والعلم بالهلال؛ فكل هذا يمكن العلم به بالطرق التي كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يسلكونها ولا يحتاجون معها إلى شيء آخر، وإن كان كثير من الناس قد أحدثوا طرقا أخر؛ وكثير منهم يظن أنه لا يمكن معرفة الشريعة إلا بها، وهذا من جهلهم...إلى آخر كلامه.) الفتاوى

-كيف نستطيع إزالة الانحرافات العقدية عند بعض طلاب العلم فهناك منهم المنحرف للغلو ومنهم المنحرف للإرجاء ؟

إن تدبر القرآن الكريم يورث تعظيم اللَّه وخشيته فيكف الإنسان عن الخوض بالباطل في العقيدة. (انظر لرسالة بيان فضل علم السلف لابن رجب للتفصيل).

إن قراءة كتب العقيدة دون تدبر القرآن الكريم يورث الجدل بين طلاب العلم لأن الفهم يتفاوت بينهم ، فكل واحد منهم يضعف فهمه على مقدار ما في قلبه من أمراض الشبهات والشهوات فترى المنحرف للغلو وترى المنحرف للإرجاء، والخوارج مثلاً ضلوا في عقيدتهم وكان من صفاتهم أنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم فلا يصل لقلوبهم ويقول تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) .

كما أن وساوس الشيطان تسبب النسيان وتشغل قلب الإنسان عن التفكر الصحيح، وتدبر القرآن يبطل كيد الشيطان وتسلطه على قلب المسلم، يقول تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) يقول ابن تيمية فكل من عشا عن القرآن فإنه يقيض له شيطاناً يضله ولو تعبد بما تعبد. {منهاج السنة}. العشا: دون العمى، أي لم ينظر للقرآن إلا نظراً ضعيفاً.

-يعاني كثير من المسلمين اليوم من ضعف الإقدام ؟

إن الشجاعة عند الإنسان منها الجبلي الطبيعي، ومنها المكتسب الذي يزيد بزيادة الإيمان واليقين يقول ابن تيمية (وكان لأبي بكر مع الشجاعة الطبيعية شجاعة دينية، وهي قوة يقينية باللَّه عز و جل وثقة بأن اللَّه ينصره والمؤمنين، وهذه الشجاعة لا تحصل بكل من كان قوي القلب، لكن هذه تزيد بزيادة الإيمان واليقين وتنقص بنقص ذلك) {منهاج السنة}، ولهذا يقول تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ

الصَّادِقُونَ)، فجعل القتال الذي يحتاج إلى شجاعة والإنفاق الذي يحتاج إلى سماحة وكرم دليل على صدق إيمانهم، فدل ذلك أن هذه الأخلاق تُكتسب بقوة اليقين باللَّه الذي يحصل بتدبر القرآن. (تفصيل الجواب موجود في موضوع الإيمان).

كيف نبدأ تعليم الوحي؟

إن تعليم الوحي لا يتم بإنشاء دواوين ومعاهد وجامعات ثم اتباع الطرق الغربية الفاسدة في تخريج معلمين يعملون بأجر ثم بثهم في المساجد والمدارس لتعليم الطلاب، فهذه طريقة فاشلة لا تلبث أن يظهر فشلها لأنها مخالفة لسنن اللَّه .

إن هذا القرآن كتاب حياة، كتاب يبين سنن اللَّه في الكون وفي النفس ويرشدك كيف تتعامل معها في حياتك اليومية، فيتلقى المسلم العلم في المسجد ثم يكون هذا العلم أساسا في نظرته للحياة وحكمه عليها، فيرى آيات اللَّه تطابق الواقع فيزيد إيمانه، فيجب علينا عدم عزل المعلم والمتعلم عن الحياة.

كما أن هذا الكتاب لا يغير حياة المسلم ويزيده إيماناً كان عند رغبة صادقة في تعلمه وكان قلبه متهيئاً له، وأعظم ما يهيئ القلب الصلاة الخاشعة – وخصوصاً قيام الليل – والإنفاق في سبيل اللَّه، ولهذا فقد كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يعلم أصحابه الإيمان قبل القرآن كما بينّا سابقاً ثم إذا نزل شيء من الوحي علمه أصحابه لفظاً ومعنى فيتلقاه أصحابه منه بفرح واستبشار ويتعلمونه علماً وعملاً.

فالطريقة الصحيحة أن يجلس من يكون من أهل العلم والتقوى في مسجد ويعلم الناس الوحي ويجتمع إليه من عند رغبة صادقة في العلم، ومع الوقت إذا رأى فيمن يجلس إليه من أصبح من أهل العلم والتقوى فإنه يرسله إلى مكان آخر ليعلم الناس، لأن هذا ما فعل رسول

الله صلى الله عليه وسلم حينما أرسل مصعباً إلى المدينة ومعاذاً وأبا موسى إلى اليمن، وهذا ما فعل عمر رضي الله عنه حينما أرسل ابن مسعود إلى العراق وأبا الدرداء إلى الشام.

كتب أنصح بها:

رسالة بيان فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب

مفتاح دار السعادة لابن القيم

إغاثة اللهفان لابن القيم

بيان العلم الأصيل لعبدالكريم بن حميد

الفرقان في بيان إعجاز القرآن لعبدالكريم بن حميد

حقيقة الحضارة الإسلامية لناصر الفهد

قدر الدعوة رفاعي سرور

عندما ترعى الذئاب الغنم رفاعي سرور.

خاتمة

ابتدأت سورة العلق بالأمر بالقراءة وبالكلام عن العلم، فالإنسان إذا تعلم علماً نافعاً أورثه ذلك الخشوع والخشية التي تمنعه من اتباع الهوى و الطغيان.

ولهذا تكلمت السورة عن الطغيان بعدما تكلمت عن العلم (كلا إن الإنسان ليطغى) ثم ذكر اللَّه أننا سنلقاه وسنقف بين يديه وأنه يرى ما توسوس به أنفسنا ويراقب ما نقول ونعمل وأنه قادر على إهلاك وتعذيب من طغى وصد عن دينه وهذا يورث الخوف المانع من اتباع الهوى .

فإذا خشع القلب وخشي اللَّه قنع باليسير من الدنيا وزهد فيها، والزهد في الدنيا يجعل إرادة المسلم خالصةً لوجه اللَّه، فإذا دعا أجاب اللَّه دعائه ولهذا يقول صلى اللَّه عليه وسلم في دعائه (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها).

ثم أنهى اللَّه هذه السورة العظيمة بالأمر بالصلاة، وذلك لأن الصلاة الخاشعة تزكي العقل فيصبح المؤمن لبيباً فطناً، فيفهم العلم بسرعة ويفكر فيه بذكاء حاد مما يثمر له معرفة اللَّه والعلم به، فيعبده بمحبه و تعظيم، وهذه جنة الدنيا وأعظم لذاتها، وهي الغاية التي خلق لها الخلق.

وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.